برلين

مدن العالم الكبرى

فرج جبران

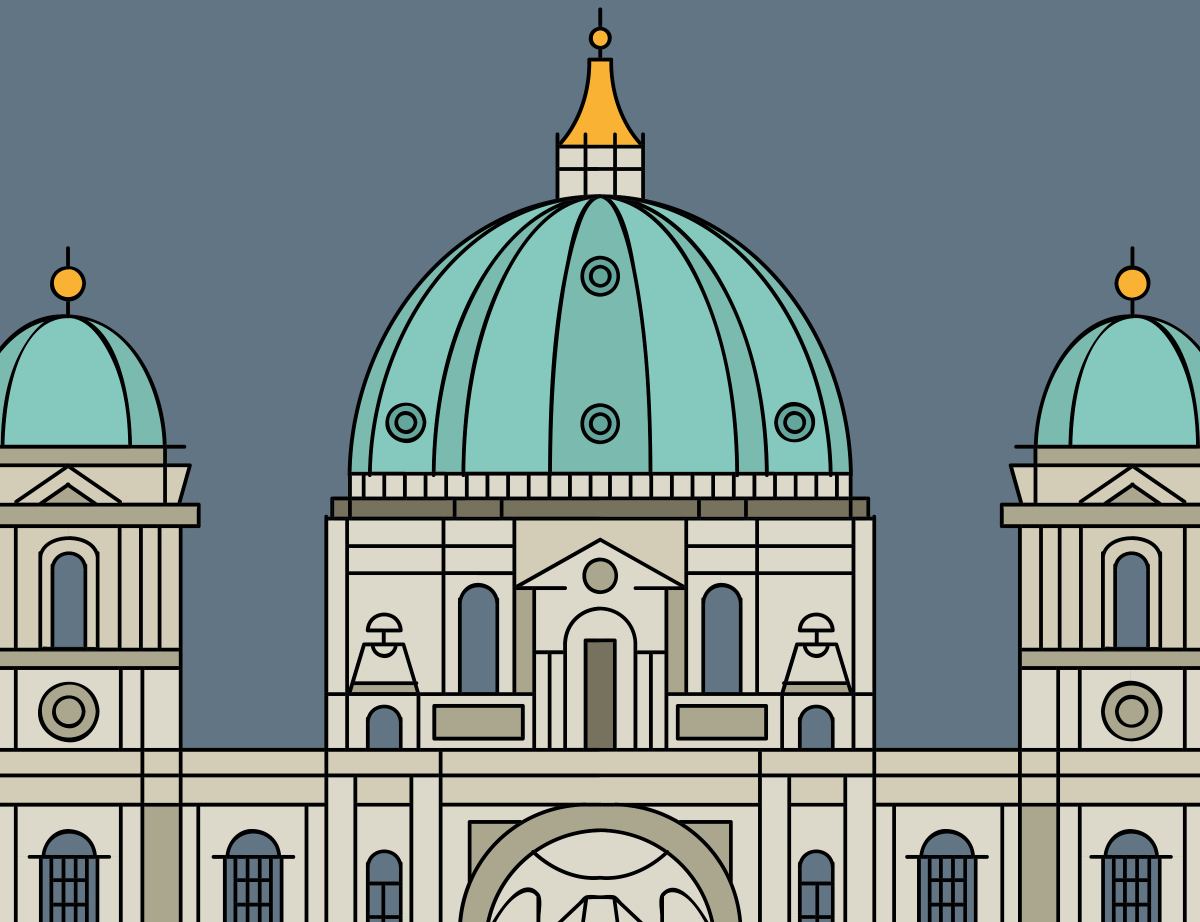

برلين

مدن العالم الكبرى

تأليف
فرج جبران

هنـــداوي

برلين

فرج جبران

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٤ ٢١٣٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

إلى مواطن «برليني»	٧
أنا عائد من برلين!	٩
أعظم مدينة صناعية	١٣
مركز الثقافة الغربية!	١٧
«برلين» في سطور!	٢١
مشكلة برلين لها تاريخ	٢٣
نظرة إلى الشرق، وأخرى إلى الغرب	٢٧
حقيقة مأساة برلين	٣١
لماذا ينتقلون من الشرق إلى الغرب؟	٣٥
مشكلة اللاجئين	٣٩
عندما يهرب الأديب!	٤٥
قال ويلي برانت	٤٩
قلت لويلي برانت!	٥٣
جولة في برلين	٥٧
برلين ترقص فوق بركان!	٦٩
ماذا يقولون؟!	٧٧
عمليات اختطاف!	٨١
رمز القوميَّة الألمانيَّة	٨٥
أجراس الحريَّة	٨٩
لماذا يعارضون الجلاء؟	٩٣

برلين لا تتبع الشرق ٩٥
ماذا يُريدون منَّا؟ ١٠١
ألمانيا لا تتجزأ! ١٠٥
هذه لمحة سريعة من التاريخ! ١١١

إلى مواطن «برليني»

شعب برلين يعيش اليوم عند فوهة البركان.

والبركان ما زال خامدًا حتى الآن.

ولكن البركان الخامد الهادئ يثور أحيانًا دون أنْ يتوقع أحد، ودون أنْ تحدث هذه الزلازل التي تسبق ثورةَ البراكين في بعض الأحيان.

ولا شك أنَّ الذين يعيشون عند فوهة البركان هم أول الذين يذهبون ضحايا لثورته، والأضرارُ التي تصيبهم تفوق بكثير ما يصيب غيرَهم من البعيدين عن الفوَّهة، ونصيبهم من الحمم والمقذوفات أكبر من نصيب غيرهم!

ومع ذلك فإن البرلينيين — وهم يعرفون بالضبط مكانهم من فوهة البركان — يعيشون سعداء، ويعملون بنشاط، ويطعمون بشهية مفتوحة، ويشربون أكثر من أي وقت مضى!

فإلى هذا البرليني الذي يحب برلين، والمتمسك بالبقاء في برلين مهما كانت الظروف، والذي لم يفقد مرحه ولا حبه للدعابة.

إلى هذا البرليني كما رأيته في رحلتي الأخيرة.

أهدي هذا الكتاب.

فرج جبران

سبتمبر ١٩٥٩

أنا عائد من برلين!

لم أشهد في حياتي، وفي مختلِف أسفاري، مدينةً كهذه؛ فقد ظلت الدول الكبرى شهورًا تتنازع من أجلها في جنيف، ووزراء خارجية الدول الأربع الكبرى يتركون مهام وظائفهم في عواصم بلادهم، ويتخصَّصون لدراسة مشكلة هذه المدينة دون أنْ يُوفَّقوا إلى حلٍّ حتى الآن، والشعب الألماني كله — سواء في ألمانيا الشرقية أو ألمانيا الغربية — يغلي كالمِرْجَل من أجل هذه المدينة.

وقد صادف وصولي إلى مدينة ميونيخ في الصيف الماضي[1] يومَ الاحتفال بذكرى المقاوَمة في الشرق، وقد نُظِّمَتِ المظاهرات في مساء ذلك اليوم، واجتمع المتظاهرون في الميادين العامة يستمعون للخطب التي أُلقِيت بمناسبة هذا الاحتفال، وكان محور الخُطَبِ كلها مدينة برلين!

ولكن ما هي حقيقة هذه المشكلة؟! وما الذي يُغضِب حكومة ألمانيا الغربية، ومن ورائها حلفاؤها في الغرب؛ أمريكا وبريطانيا وفرنسا، من اقتراح سحب جميع القوات الأجنبية من برلين، وتسليم السلطة فيها للألمان؟!

وما هي حقيقة الدوافع التي حفَّزت روسيا إلى القيام بهذه الحركة والتقدم بهذا الاقتراح؟!

وما الذي ينطوي عليه اقتراح جعل برلين مدينةً حرَّة تحت إشراف الأمم المتحدة؟!

---

[1] يونيو ١٩٥٩.

هذه هي الأسئلة التي تمر بذهن كل مَن يزور ألمانيا، بل كل مَن يصل إلى برلين بالذات، فقد نسي الناس أصل المشكلة لطول ما تردَّد من الحديث عن المشكلة نفسها، وعن الاجتماعات والاقتراحات والمذكرات والجهود التي تُعقَد وتُقدم وتَعِد وتُبذَل من أجل حل المشكلة!

ويخطئ مَن يظن أنَّ جروميكو ممثِّلًا للاتحاد السوفييتي، أو هيرتر وكوف دي مرفيل وسلوين لويد ممثِّلي حلفاء الغرب، قد عقدوا الاجتماعات الطويلة في جنيف ليقرِّروا مَن الذي يفوز بمدينة برلين، وهل تكون من نصيب الشرق أم من نصيب الغرب؛ فالنزاع لا يدور من أجل مدينة برلين في حد ذاتها، وإنما يدور من أجلها باعتبارها قطعة هامة على لوحة الشطرنج العالمي، ومَن يمكنه الفوز بهذه القطعة الغالية سيكون في مركز استراتيجي أقوى من مركز الطرف الآخر؛ ولذلك فمن غير المنتظر أنْ يتساهل أحد الطرفَين المتنازِعَين.

ولذلك قد يبدو غريبًا بالنسبة إلينا، نحن الذين جاهَدْنا السنوات الطوال من أجل الخلاص من الاحتلال، قد يبدو غريبًا لنا حقًّا أنْ نسمع عن أي شعب يرفض عرضًا يتقدَّم به أحد المحتلين لعاصمته متضمنًا سحْبَ جميع القوات المحتلة من هذه العاصمة! ليس فقط مجرد الرفض، بل إنَّ هذا الشعب — في ألمانيا الغربية — يطالِب مُلِحًّا بضرورة بقاء جيوش الاحتلال إلى أنْ يتم حل المشكلة الألمانية بأجمعها؛ إنه يطالب بحلٍّ كُلِّيٍّ للمشكلة، ولا يريد تجزئة الحلول.

وزيارة برلين هي التي توضِّح فعلًا سرَّ هذا النزاع القائم حول المدينة؛ ففيها وحدها دون سائر مدن العالم يجتمع نظامان من الحكم يختلفان تمام الاختلاف عن بعضهما؛ فبرلين الشرقية تخضع لنظام الحكم السائد في ألمانيا الشرقية وهو النظام الشيوعي، وبرلين الغربية تخضع لنظام الحكم السائد في ألمانيا الغربية وهو نظام الجمهورية الاتحادية، والنظامان يتصارعان صراعًا شديدًا في هذه المدينة حتى لقد حوَّلها هذا الصراعُ إلى قنبلة قد تنفجر في أي لحظة من اللحظات فتهدِّد السلام العالمي.

وكل ما يرجوه الساسة في العالم كله ألَّا يتعقَّد الموقف الدولي إلى درجةٍ تجعل من برلين سراجيفو ثانية أو ممرًّا بولنديًّا جديدًا، وسراجيفو مدينة صغيرة في يوغوسلافيا أُطلِقت فيها الرصاصات الأولى التي أشعلت نار الحرب العظمى — أو العالمية الأولى — في عام ١٩١٤، وقد استمرت هذه الحرب إلى ١٩١٨.

أما الممر البولندي فقد كان هو الآخَر جزءًا صغيرًا من الأراضي البولندية، يفصل بين ألمانيا وبين ذلك الجزء من أراضيها في الشرق الذي يطل على بحر البلطيق؛ ومن أجل

الاستيلاء على هذا الجزء الصغير، الذي كان يُطلَق عليه اسم الممر البولندي، أشعل هتلر نار الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، وقد استمرت هذه الحرب حتى عام ١٩٤٥.

ولقد ردَّدها جروميكو فعلًا في أحد الاجتماعات، وهو يطالب الحلفاءَ الثلاثة بضرورة العثور على حلٍّ لهذه المشكلة المستعصية، فتمنَّى ألَّا تصبح برلين سراجيفو أخرى!

أعظم مدينة صناعية

في مصانع برلين الغربية يعمل الآن أكثر من ٣٠٠ ألف رجل وامرأة؛ أيْ أنه طبقًا لإحصائيات العمل تُعَد برلين الغربية أكبرَ مدينة صناعية في ألمانيا، وبرنامج الصناعة في المدينة يُمَكِّنُها من أنْ تقدِّمَ تنوعًا واسعًا في البضائع الاستهلاكية، كما يُمَكِّنُها من تقديم الصنف الجيد الذي تشتهر به. وتهتم المدينة اليومَ أكثر من أي وقتٍ مضى بإرسال منتجاتها إلى جميع أنحاء العالم ما دامت تكسب بذلك رزقَ سكانها، فبسبب تقسيم ألمانيا لا تستطيع برلين الغربية أنْ تشيد أي جزء من رخائها على وجود الكثير من الهيئات الإدارية المتصلة بالحكومة؛ ولهذا فإن الوسيلة الرئيسية التي تلجأ إليها للمحافَظة على وجودها هي الصناعة.

ولعل نجاح برنامج التعمير الذي بدأ بعد الحرب — وهو البرنامج الذي لعبت فيه المعونة الألمانية الغربية دورَها — يعبِّر عن النمو الصناعي في برلين الغربية؛ ففي عام ١٩٥٠ كانت دورة رأس المال تُقدَّر بـ ١٨٠٠ مليون مارك، ولكنها وصلت في عام ١٩٥٨ إلى حوالي ٧٠٥٠ مليون مارك، أما الصادرات فقد ارتفعت من ١٠٠ مليون مارك في عام ١٩٥٠، إلى ٨٥٠ مليون مارك عام ١٩٥٧، ويُصَدِّرُ عددٌ كبيرٌ من شركات برلين الغربية جزءًا كبيرًا من إنتاجها.

وهذه الأرقام تدل على نجاح محاوَلة إيجاد أسواق خارجية لمنتجات برلين الغربية، وهناك أكثر من ٢٠٠٠ شركة تصدِّر إلى بلادٍ يبلغ عددُها ١٣٧ بلدًا، ونجاحُ هذه الشركات لا يرجع إلى ما يُبذَل في التسويق فحسب، وإنما يرجع أيضًا إلى الثقة في قدرة هذه الشركات. والعاملُ الحاسم في الموضوع هو جودة الإنتاج والمرونة في سد احتياجات العملاء، وإنتاج المعدات الجديدة لمواجَهة الطلب على الأنواع الجيدة.

نفق حديث يصل بين أحد شوارع برلين وكورفور ستندام أكبر شوارع برلين.

والهندسة الكهربائية هي أهم عنصر في صناعات برلين الغربية، وهي مخصَّصة في المقام الأول لإنتاج الآلات، وبرنامجُ الإنتاج في هذا الميدان يختلف من التوربينات والمحرِّكات الثقيلة إلى أدق أجهزة القياس، ومن الأسلاك التي تُستخدَم في أعماق البحار إلى أجود معدات الاتصال. وتمثِّل التجارةُ في منتجات الصلب والمنتجات المعدنية أكثرَ من نصف إنتاج برلين الغربية الصناعي. وحوالي ثلاثة أخماس العمال في صناعات هذه المدينة يعملون في إنتاج البضائع التي تكون رأس المال، ومعنى هذا أنَّ الأولوية تُعطَى لمنتجات التصدير.

وتُخَصَّصُ الصناعةُ في برلين الغربية لإنتاج الآلات ومعدات المكاتب وآلات الطباعة وصناعات الورق، كما تصدِّر المدينة كذلك الأدوات البصرية وأدوات الجراحة وغيرهما من أدوات المستشفيات، ومعدات التصوير، ومهمات المعامل بكميات كبيرة، ونفس هذه الحقيقة تنطبق على صناعة الأدوية. ومما يدل على أنَّ برلين الغربية تستطيع أنْ تقدِّم أصنافًا متنوعة من البضائع الاستهلاكية، أنها تنتج الورق والآلات الموسيقية والزجاج والخزف والمجوهرات والبيرة والمشروبات الروحية. لقد أصبحت برلين الغربية مركزًا صناعيًّا متقدِّمًا، وهي تبذل جهودًا كبيرة للحصول على أسواق خارجية.

وتُعتبَر برلين الغربية من ناحية أخرى سوقًا يستحق الاهتمام، فمن بين سكان المدينة الذين يبلغ عددهم ٢,٢ مليون نسمة، يوجد مليون موظف من ذوي الدخول الكبيرة، وقد

وصلت قيمة البضائع التي استوردتها برلين الغربية عام ١٩٥٧ إلى ٦٤٠ مليون مارك، كما دعمت القوة الشرائية في المدينة بدرجة كبيرة؛ نتيجة للمِنَح التي تحصل عليها من الحكومة الاتحادية، والتي تبلغ سنويًّا ١٥٠٠ مليون مارك، وهذه الحقيقة تُعَد على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لوضع برلين.

مركز الثقافة الغربية!

يمكن وصف برلين الغربية بأنها جزيرة في بحر واسع، ولذلك فإن مطالب خاصة ارتبطت بحياتها الثقافية؛ إذ إنها المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الألمان من الشرق والغرب أنْ يتمتعوا بثمار الثقافة الغربية.

ويوجد في برلين الغربية في الوقت الحاضر ثلاثة مسارح تملكها الدولة وخمسة يملكها أفراد، وهذه المسارح يتردَّد عليها بصفة مستمرة سكان القِطاع الغربي من برلين وسكان المنطقة الشرقية، وتُعتبَر المسرحيات التي تُقدَّم على مسارح برلين الغربية من حيث النوع من أروع ما ينتجه الفن المسرحي في الجمهورية الاتحادية.

ويوجد في برلين الغربية مسرح صغير يُسمى «دي فاجانين»، وهذا المسرح أصبح مركزًا أصيلًا من مراكز الاتصال بين ألمان الشرق والغرب منذ إنشائه، والمسرحيات التي يعرضها هذا المسرح تُقدِّم إلى الزائرين الذين يَفِدون من المنطقة الشرقية الزادَ الروحي للعالَم الحر.

وأوبرا برلين الغربية التي يديرها البروفسور كارل أبرت منذ سنوات اكتسبت شهرةً واسعة بتقديمها أوبرات لجاناسيك وأوبرا لهانزويرز هينز، ورغم الجدل الذي أثارته الأوبرات الثانية، إلا أنها كانت مثلًا رائعًا على جرأة المحاولات التي تُجرى في برلين الغربية، وعلى أهمية الاحتفاظ بالنشاط والحرية الروحية والفكرية فيها.

وبفضل قرارٍ اتخذه مجلس النواب في برلين عام ١٩٥٥ أمكن تحقيق تقدُّم كبير في خدمات دور الكتب، وهذا القرار يتعلق بمشروعٍ مدتُه عشر سنوات، يهدف لإنشاء دور كتب عامة، يُخصَّص الكثير منها للأطفال في جميع أنحاء المدينة، ودار الكتب التذكارية

الأمريكية خُصِّصت — بوصفها مكتبةً مركزية — لجميع أنواع المعرفة، وهي بهذا تُعَد ذات أهمية خاصة.

وهذه الدُّور لا تهدف في المقام الأول إلى خدمة أغراض الأبحاث المدرسية، ولكن لتقديم المعلومات لجميع الأشخاص في جميع نواحي الحياة، وبفضل وقوع هذه الدور بالقرب من خط الهدنة بين كلٍّ من برلين الشرقية والغربية، يقوم بزيارتها دائمًا سكان برلين الشرقية، ويبدو أنَّ الذي يجذبهم إليها هو الأفلام الثقافية التي تُعرَض فيها مساءَ كل يوم سبت، وفي كل فصل خريف يُنظَّم في برلين الغربية معرضٌ دولي للكتب، ويزور هذا المعرضَ عادةً كثير من أهالي المنطقة الشرقية، علاوة على أهل القطاع الغربي.

وفي الجامعة الحرة وغيرها من المعاهد العليا في برلين الغربية يدرس عدد كبير من طلبة المنطقة الشرقية. وأسابيع مهرجان برلين ومهرجان الفيلم الدولي تُعَد من الأحداث السنوية، التي تجذب سكان المنطقة الشرقية، خصوصًا مَن يعيش منهم في المناطق القريبة من المدينة، ويبلغ عدد الذين يشهدون مهرجان برلين الدولي من أهالي المنطقة الشرقية ٣٠٪ من مجموع الحاضرين، والألمان من شرق الستار الحديدي يحضرون إلى برلين أيضًا للاشتراك في الأحداث الأدبية التي يشترك فيها زائرون من الخارج مثل كارك بورلهارت، ومارتن بوبر، وكارت زوكماير، وأرنولد توينبي، وقد أُقِيم ذات مرة احتفالٌ بِعيدِ ميلاد ألبرت شفيتزر، وكان لا بد من تكرار هذا الاحتفال. ومثل هذه الأحداث ينظِّمها عادةً مجلسُ الشيوخ في برلين الغربية وجمعيةُ أرنست رويتر «وأوانيا»، وهو اتحاد ثقافي يحظى باحترام كبير، وقد أُعِيد إنشاؤه عام ١٩٥٤.

ويوجد في حي داهلم الآن متحف جديد، أُودِعت فيه أروع كنوز الفن التي أمكن إنقاذها من دمار الحرب، بعد أنْ حُفِظت وقتذاك في مدن ألمانيا الغربية.

وبتقسيم برلين انفصلت جامعة فردريك ويلهلم عن غرب برلين، وأصبحت في المنطقة الشرقية، وصارت تُسمَّى اليومَ «جامعة هامبولت»، وقد أُنشِئت بدلًا منها «الجامعة الحرة الجديدة»، التي يؤمُّها الآن حوالي عشرة آلاف طالب، وتُعتبر رمزًا للحرية الفكرية في برلين الغربية.

أما «المعهد الفني» فقد ارتفع إلى مصاف الجامعات، ويضم اليومَ نحو ٦٠٠٠ طالب، وهناك عدد آخر من المعاهد العلمية، كالمعهد الموسيقي، ومعهد التربية، أما استديوهات السينما فهي قوية الانتعاش. ولا يمر أسبوع واحد إلا وتُقام الأسواق الزراعية والصناعية في برلين، كما تُعقَد الاجتماعات ومهرجانات السينما والأعياد.

إنَّ الأسابيع التي تقام فيها المهرجانات والمعارض، تجعل من برلين الغربية واجهةً جذَّابة من واجهات العرض التي تعلن عن العالَم الحر، ومركزًا جذَّابًا من الوجهة الصناعية والمتعة الحسنة لأفواج الزائرين القادمين إليها من المنطقة الشيوعية، بل كافة أنحاء العالم.

«برلين» في سطور!

إنَّ سكان برلين عُرِفُوا بصفاء النفس وحبِّهم للحرية بأي ثمن، وهم دائمًا هادئو الطباع، لا يحتدُّون إذا أُثِيروا، كما يحافظون دائمًا على روحهم العالية، وهذا ما لمستُه عندما زرتُ برلين الغربية.

ولقد قرأت في كُتَيِّب صغير نُشِر حديثًا عنوانه «برلين في كلمات»، أنه في عام ١٩٥٧ أشرقت الشمس على برلين مدة ١٦٧٧ ساعة، وأنه بفضل شمس برلين قد أصبح «هواء برلين» مضرب الأمثال في عبيره وجفافه، بحيث يمكن مقارَنته بنبيذ شمبانيا المنعش، كما أنَّ أهل برلين مشهورون بحبهم للحيوان وخصوصًا الكلاب، فهناك ٩١١٠٠ كلب في برلين، والمثل المشهور عندهم «أنَّ لكل شجرة في برلين كلبًا!»

ومن مزايا برلين الطبيعية أنها مكان ملائم للراحة والمتعة.

ففي برلين الغربية ١٧٧٢ هكتارًا مخصَّصة للحدائق العامة، و٢٩٧٩ هكتارًا من البحيرات، وفي حدائق النباتات يستطيع الفرد أنْ يمشي على ٤٦ هكتارًا من الحشائش الخضراء، ويستمتع بأنضر نماذج النباتات.

وهناك سبعة مسارح في برلين الغربية، علاوة على دار أوبرا البلدية الواقعة في شارع كنت، ويُعتبَر سكان برلين بالنسبة لسكان باقي مدن الجمهورية الألمانية الاتحادية من أكثر المتردِّدين على دُور السينما.

إذ يبلغ متوسط تردُّد الفرد من سكان برلين الغربية على دور السينما — وهي تبلغ ٢٢٦ دار سينما في برلين — ٢٧ مرةً في خلال العام.

معسكر من معسكرات اللاجئين في غرب برلين، حيث يَفِد الألمان من الشرق ليبدءوا حياةً جديدة!

وتُعتبَر برلين الغربية أكبرَ مركز صناعي في القارة الأوروبية لأزياء السيدات، فمنذ وقت قريب اجتمع ممثِّلون لأكثر من ٤٠٠ بيت من بيوت الأزياء التي تعمل في برلين مع مئاتٍ غيرهم من أنحاء الجمهورية الاتحادية ومن الدول الأجنبية.

ونظرًا للتغيُّرات السريعة التي طالما تطرأ على أزياء السيدات، فإن صناعة الأزياء في برلين اتخذت من العبارة الآتية شعارًا لها:

تشجَّعوا من أجل الأزياء!

ولكن أهالي برلين حوَّروا هذا الشعار إلى:

تشجَّعوا من أجل برلين!

وها هي أنظار العالم تتجه مرة أخرى إلى برلين! ونظرًا لأنها محاطة بمنطقة ألمانيا الشرقية الشيوعية، فإن العاصمة الألمانية القديمة قُسِّمت إلى برلين الغربية الديمقراطية الحرة، وعدد سكانها ٢,٢ مليون نسمة، ومساحتها ١٨٦ ميلًا مربعًا؛ وبرلين الشرقية التي يحكمها الشيوعيون، وعدد سكانها ١,١ مليون نسمة، ومساحتها ١٥٦ ميلًا مربعًا.

مشكلة برلين لها تاريخ

ظلت برلين عند نهاية الحرب العالمية الثانية عاصمة ألمانيا المنهزمة، حتى بعد أنْ دمَّرت القنابل نصفَ مساكنها، وكانت مدينة واحدة، وفي شرقها وفي غربها وفي شمالها وفي جنوبها كان الناس يخرجون من مخابئ الغارات الجوية ومن بيوتهم التي هدمتها القنابل، ومع أنَّ عقولهم كانت لا تزال متأثِّرة بالحوادث التي هزَّت أعصابهم، فإن أيديهم سارعت إلى العمل؛ لكي تجعل مدينتهم مرةً أخرى مكانًا يمكن السكنى فيه.

وبعد انتهاء الحرب بأربع عشرة سنة اختفت جروح برلين، التي سبَّبتها الحرب إلى حد كبير، ولكن لم يَعُد لها كيان أو وجود ذاتي، فإن برلين اليومَ تمثِّل مأساةَ ألمانيا التي قُسِّمت إلى شطرَين، فهناك برلين الغربية الحرة المكافِحة، وهناك برلين الشرقية التي تمثِّل الطابع الشيوعي، فالديمقراطية الحرة تَسُود جزءًا من أعظم مدن ألمانيا، بينما تَسُود الشيوعيةُ الجزءَ الآخر؛ وبذلك فإن موارد المياه والغاز والكهرباء وخطوط المواصلات والنقل، وبمعنى آخَر شرايين الحياة في هذه المدينة العصرية، قد قُسِّمت كلها إلى قسمَيْن؛ هذا التقسيم الذي يُؤسَف له لم يتم بإرادة الشعب، بل جاء نتيجةً للسياسة السوفييتية. ولكن كيف حدث ذلك؟!

فقد تم الاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتي، ثم أيَّدته فرنسا فيما بعد، على تفاصيل مستقبل برلين بعد الحرب؛ ففي ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٤ و٢٩ يونيو سنة ١٩٤٥، تعاهدت الدول الكبرى على الاشتراك في إدارة المدينة طالما بقيت ألمانيا دولةً محتلة، وجاء الحكم الرباعي بعد شهرَين من استسلام ألمانيا دون قيد أو شرط في مايو ١٩٤٥، وكان هذا معناه أنَّ السوفييت بقوا مُطلَقي الحرية أحرارًا في التصرُّف

لحين وصول الحلفاء الغربيين، وكانت المعركة لا تزال قائمةً عندما نقلت الطائرات من موسكو إلى حدود المدينة فِرَقًا من الشيوعيين السوفييت والألمان، كانوا على استعدادٍ لإقامة الجهاز الإداري الجديد في برلين.

وفي الوقت الذي بُذِلت فيه المحاوَلات لإرجاع المدينة إلى الحياة الطبيعية، كانت حركة تجريد المصانع من آلاتها قائمةً على قدمٍ وساق، وبذلك حُرِمت برلين من كل مَقْدرة صناعية نجَتْ من دمار الحرب، ومع هذا كله فإن سكان برلين لم ييأسوا، وبأيديهم المجردة استطاعوا أنْ يقاوِموا النظام الشيوعي، الذي حاوَل السوفييت أنْ يفرضوه فرضًا، فإن أول انتخابات بعد الحرب في أكتوبر سنة ١٩٤٦ قد أظهرت ذلك جليًّا؛ لأنها انتهت بهزيمة ساحقة للحزب الشيوعي.

وبذلك تحقَّق الشيوعيون أنهم بوسائلهم الليِّنة لن يستطيعوا الوصولَ إلى هدفهم؛ ولذلك لجئوا إلى العنف، فحطَّم المشاغبون الشيوعيون قاعةَ البلدية، ولم تكن هناك إدارة مشتركة للقطاعات الأربعة، بل كان لكلٍّ من الدول المحتلة قطاعٌ تحكمه، وقد قدَّم السوفييت اعتراضًا (فيتو) لمنع عمدة المدينة الذي انتُخِب انتخابًا قانونيًّا من أنْ يتقلَّد مهامَّ منصبه، وقد اتخذ السوفييت من إصلاح العملة ومن المعونة المالية الغربية، ومن بدء انتعاش ألمانيا الغربية اقتصاديًّا؛ اتخذوا من كل هذا ذريعةً لحصار برلين الغربية.

ولكن الضغط فشل في تحطيم عزيمة سكان برلين الصلبة التي صمَّمت على مقاوَمة الدكتاتورية الشيوعية، واضطر السوفييت إلى التراجُع، وتم الاتفاق بين ممثِّلي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية على تأييد الاتفاقية السابقة، التي تنص على ضمان حرية المواصلات والنقل والتجارة بين برلين والمناطق الغربية لألمانيا، وعدم خضوعها لأية قيود؛ وتبعًا لهذا تقدَّمت برلين الغربية، وازدهرت على نفس المنهاج الذي كانت تسير عليه ألمانيا الغربية.

ونظرًا لأن برلين الغربية كانت منفصلة عن باقي ألمانيا، لم يكن من المستطاع جلب الأطعمة والمواد الخام من المنطقة المجاورة بسبب القيود المفروضة، وكان كل شيء يدخلها يُنقَل بواسطة السكك الحديدية، أو الطرق العامة، أو الجو، أو الطرق المائية عبر مئات من الأميال، ولم يكن هذا بالعمل اليسير، ومع ذلك فإن سكان برلين يعملون بجد ويشتغلون جهد الطاقة؛ لكي يُسايِروا التقدُّم الذي تحقَّقَ في ألمانيا الغربية أو جمهورية ألمانيا الاتحادية. إنَّ الجهود تتضافر لإعداد المدينة لليوم الذي يتم فيه إعادة اعتبارها إليها كعاصمةٍ لألمانيا المتحدة.

تبدو شوارع برلين الغربية بالليل، وخاصة شارع كورفرستندام، كأشرطة من النور يتلألأ فيها بريق اللافتات.

وفي أثناء ذلك ظل الجزء الشرقي للمدينة خاضعًا لكل قواعد وقيود الحكم الشيوعي، فإذا قارنَّاه ببرلين الغربية لَوجدنا أن التعمير قد أُهمِل، وأنَّ الناس ليس لهم خيار في الانتقال من مكان إلى آخَر، وليس لهم أنْ يعطوا أصواتهم في انتخاب حرٍّ، كما أنَّ مستوى المعيشة بينهم أقل من مستوى جيرانهم في برلين الغربية، وقد حُرِّم عليهم تداوُل الكتب والجرائد الغربية، أما وسائل التسلية فهي قاصرة على ما تُملِيه عليهم حاجاتُ المبادئ الشيوعية مهما عارَضَها السكان. وهكذا أصبحت برلين الغربية هي الرئة التي يستطيعون التنفس بها من وقتٍ إلى آخر، فالحياة فيها هي كل ما يتمنَّونه، وهم في أشد الشوق إلى اليوم الذي يستطيعون فيه أنْ يُدْلوا بأصواتهم في انتخابات حرة.

وعندما أعلن السوفييت نيتَهم في جعل برلين الغربية مدينة «حرة»، أصابت سكانَ برلين الغربية صدمةٌ عنيفة، كما أصابت نفس الصدمة مواطنيهم في برلين الشرقية، بل

في كل المنطقة التي يحتلها السوفييت أنفسهم، فقد علَّمتهم الخبرة ماذا يقصد الشيوعيون بكلمة «حرة»! إنها نهاية الحرية بالنسبة لسكان برلين، فلا شك أنَّ بقاء الوضع الحالي يضمن لسكان برلين نوعًا من الحياة يستحق الجهاد من أجله، وهم يعتمدون على بقائه إلى أنْ يأتي اليوم الذي يمكن أنْ تحقِّق فيه مفاوَضاتُ السلام إعادةَ توحيدِ ألمانيا في ظل نظام حرٍّ؛ وبذلك فليس هناك حل منفصل لبرلين الغربية؛ إنَّ مشكلة برلين هي مشكلة ألمانيا بأكملها.

نظرة إلى الشرق، وأخرى إلى الغرب

يستطيع الزائر اليقظ الذي يفد على برلين عن طريق الجو، أنْ يميز الحدود التي تفصل بين القطاع الشرقي والقطاع الغربي من نافذة الطائرة التي يستقلها.

فإن برلين الغربية تعج بالسيارات المتزاحمة والمباني الحديثة في حين تخف حركة السيارات في برلين الشرقية، وتتناثر في أرجائها الخرائب التي خلفتها الحرب العالمية الثانية.

وتزداد حدة هذه الفوارق المادية متى هبط الزائر في برلين، وأمعن النظر في كل من المدينتين، فتروعه معالم الرخاء والروح النابضة بالحياة في برلين الغربية، كما يحزنه الفراغ الذي يتسم به الجزء الأكبر من برلين الشرقية.

ومهما يكن من أمر فإن الزائر المدقق لا يجد مناصًا من أنْ يلاحظ مظاهر الاختلافات الروحية والمادية بين المدينتين، وأنْ يفكر في المعاني العميقة التي تتصل بتقسيم المدينة إلى منطقة حرة وأخرى شيوعية.

ومن السهل أنْ يدرك المرء وهو يتجول في القطاع الغربي، الذي يتمتع بالحرية والرخاء، لماذا اختار سكان برلين الغربية أنْ يتمسكوا بحرياتهم بمثل هذا الإخلاص، وبمثل هذه الأغلبية الساحقة؟! ولماذا يسعى الشيوعيون إلى تحطيم هذه الحريات؟! ولعل ما رواه أخيرًا أحد الزائرين الأجانب خير شاهد على ذلك إذ قال: «استيقظت صباح يوم ما في غرفة جميلة مشمسة في فندق معتدل الأجر، وكان طعام إفطارنا، الذي قدم إلينا بسرعة، جيدًا جدًّا، معتدل الثمن، وذهبت إلى كنيسة من كنائس الطوائف الدينية العديدة المحرَّمة في الجانب الآخر من الستار الحديدي، وكانت الكنيسة تعج بالمصلين الغيورين الشاكرين، الذين ارتفعت أصواتهم المتحمسة بالترانيم الدينية المألوفة، ولا عجب فإن في استطاعتهم أنْ يعبدوا الله بالطريقة التي تحلو لهم.»

«وزرت بعد ذلك مسكن بعض الأصدقاء وشاهدت على ستار التليفزيون مناقشة مثيرة، فقد كان من بين الصحفيين الذين اشتركوا في هذا البرنامج شيوعيون من يوغوسلافيا، لقد كانت حرية الصحافة وحرية القول متوفرين في هذا القطاع، أما رجال الشرطة في الخارج فقد كانوا منهمكين في توجيه حركة المرور، لا في السيطرة على حياة الناس؛ لأن الحياة في برلين الغربية تتمتع بكل سمات المجتمع الحر؛ أي بالحرية المادية والاجتماعية والروحية.»

أما القطاع الشرقي فقد حاول الشيوعيون أنْ يجعلوا منه مكانًا يعرضون فيه خير ما لديهم، ولكن التباين شاسع رغم ذلك بينه وبين القطاع الغربي، فليس في القطاع الشرقي أي أثر للمشاريع الخاصة، وليس فيه كذلك أية مبانٍ حديثة جميلة تضم المحال التجارية والفنادق والشقق والمساكن، ولكن يوجد بدلًا من ذلك شارع ستالين، الذي يمتد عدة أميال، ويتألف من مبانٍ ضخمة للفنون الجميلة والمساكن والمحال التجارية، ولكنه يفتقر إلى الحيوية والرونق والروح النابضة بالحياة التي تتسم بها شوارع القطاع الغربي، كما أنَّ ما تعرضه محاله التجارية من السلع لا يغري المرء على الشراء؛ لأن أسعارها مرتفعة جدًّا.

وخلف هذه الواجهة المنمقة المصطنعة التي يمثلها شارع ستالين، يرى المرء أميالًا من الخرائب التي تتألف من المساكن المهدمة والشوارع القذرة والحياة التعسة، ويجثم فوق كل ذلك شبح الدولة البوليسية الرهيب، فقد تقرع بابك في أي يوم قبضة يد رجال البوليس المخيفة، كما أنَّ عجلة الدعاية تدور دون توقف والمحظورات كثيرة، والحياة شاقة مرهقة.

حقيقة أنَّ حالة برلين الشرقية تحسنت من الناحية المادية عما كانت عليه في السنوات التي تلت الحرب، ولكنها تدهورت من الناحية الروحية، ويرجع السبب في احتمال السكان لهذه الحال إلى استطاعتهم التسلل إلى برلين الغربية، أما إذا أغلقت أبواب برلين الغربية في وجوههم، فإن أثر ذلك سيكون خطيرًا جدًّا على سكان برلين الشرقية التعساء؛ لأنه يقضي قضاءً مبرمًا على أملهم الأخير.

ولعل هذا من الأسباب الرئيسية التي يحاول الشيوعيون من أجلها القضاء على الحرية في برلين الغربية؛ ذلك لأن برلين هي البوابة الوحيدة في الستار الحديدي، الذي يمتد من رأس الشمال عبر أوروبا الوسطى وآسيا.

ورغم أنَّ سكان برلين قد اعتادوا على ما في مدينتهم من تباين وتناقض في مظاهر الحياة، فإن الزائرين الذين يفدون من دول أخرى سرعان ما تستلفت أنظارهم الخرائب

الشاسعة، التي خلفتها الحرب الماضية، والتي ما زالت قائمة في برلين الشرقية، كما أنَّ واجهات العرض في المحال التجارية — فيما عدا المحال الموجودة في شارع ستالين — تكاد تكون خالية من السلع، أو أنها تعرض سلعًا لا تغري المرء كثيرًا على الشراء، وفي كثير من الأحوال توضع المعروضات بقصد الزينة فحسب لا للبيع.

وأثمان السلع التي لا تعد من الضروريات الحيوية في برلين الشرقية وغيرها من مدن ألمانيا الشرقية، ومعظم دول أوروبا الشرقية التي تسير في فلك الاتحاد السوفييتي، خيالية فهي في كثير من الأحوال تزيد على أربعة أضعاف الأثمان، التي تباع بها في برلين وغيرها من مدن جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة منذ عام ١٩٥٥.

فليس من المستغرب إذن أنْ تجتذب شوارع برلين الغربية التي تعج بالحركة والتجارة سكان برلين الشرقية، الذين يفدون إلى القطاعات الغربية بأعداد كبيرة؛ ليشتروا ما يريدون من السلع التي لا يوجد مثلها في محالهم التجارية، التي تديرها الدولة، أو السلع التي يوجد مثلها، ولكنها من صنف أقل جودة.

وتعد برلين الغربية من وجهة نظر الزائرين من المنطقة الشيوعية مدينة عظيمة الأهمية؛ لأنها تكذيب واقعي للدعاية التي يسمعونها باستمرار من محطات الإذاعة في القطاع السوفييتي، أو يقرءونها في صحفهم المحلية، والمحال التجارية في برلين الغربية مفتوحة للجميع سواء قدموا من برلين الشرقية، أو من أي مدينة أو دولة أخرى في العالم، ولكن سكان برلين الشرقية يدركون وهم يشترون ما يريدون أنَّ الأمور تختلف عن ذلك في قطاعهم، حيث يتعين عليهم أنْ يبرزوا بطاقات تحقيق الشخصية؛ لأن معظم المواد الغذائية والملابس لا تباع إلا لسكان برلين الشرقية الأصليين لا الزائرين.

ويفسر الشيوعيون الرسميون ذلك بأن الغرض من هذه القيود، هو منع التهريب في حين أنَّ الاعتقاد الشائع هو أنَّ السلع في ألمانيا الشرقية خاضعة لنظام الحصص؛ وذلك لأن السلع الموجودة لا تكاد تفي إلا بالحد الأدنى من حاجات السكان فقط.

ومهما يكن من أمر فإن المشترين الوافدين من برلين الشرقية، ويمكن تمييزهم بسهولة بواسطة ثيابهم، يشاهدون باستمرار في المحال التجارية ببرلين الغربية.

وتشترك ربات المنازل القادمات من برلين الشرقية في عادة واحدة تكاد ترمز — كغيرها من الأمور — إلى التناقض المادي بين قطاعي برلين، كما تصور في نفس الوقت خلجات النفس البشرية في كل مكان. فإن هؤلاء النسوة يأتين إلى برلين الغربية لشراء الأحذية، ثم يتجولن بها في أنحاء المدينة طول النهار حتى إذا حل موعد عودتهن واجتزن

كان تأسيس فندق هيلتون في برلين باعثًا على الثقة في العاصمة القديمة.

الحدود إلى برلين الشرقية، لا تبدو أحذيتهن جديدة، وإلا صادرها بوليس الحدود في المنطقة السوفييتية.

إنَّ الزائرين وهم يغادرون المدينة، وأذهانهم ممتلئة بمثل هذه الذكريات، يتجولون بأبصارهم وهم في الطائرات التي تحملهم بعيدًا عن مدينة برلين، فيشاهدون الاختلاف واضحًا بين القطاعين.

فإذا حدث أنْ غادر هؤلاء الزوار برلين أثناء الليل، فإن آخر نظرة يلقونها على عاصمة ألمانيا السابقة تظل عالقة بذاكرتهم، إذ تبدو شوارع برلين الغربية — وخاصة شارع كورفر ستندام — كأشرطة من النور، يتلألأ فيها بريق لافتات النيون وأضواء السيارات التي تجتازها، أما فيما وراء شارع ستالين بالقطاع الشرقي، فإن أحياء برلين الشرقية بأجمعها تبدو مظلمة ساكنة، لا يستطيع النظر العثور عليها إلا بعد البحث عن آثار وميض ضعيف عارض من أنوار الشوارع.

حقيقة مأساة برلين

لا بدَّ أنَّ الناس خارج ألمانيا يشعرون بحيرة عندما يسمعون أو يقرءون عن ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، وعن برلين الشرقية وبرلين الغربية، فمن الصعب عليهم أنْ يلموا بحقيقة المأساة التي أحاطت بتقسيم ألمانيا وتقسيم عاصمتها، فإن ٥٥ مليونًا من الألمان في الجمهورية الاتحادية، ومليونين ونصف تقريبًا في برلين الغربية يناضلون من أجل إعادة توحيد ألمانيا على أساس مبدأ تقرير المصير، وهم يتولون هذا النضال السياسي باسم ١٧ مليون ألماني يعيشون داخل الجمهورية الديمقراطية الألمانية في الشرق، ممن لا يستطيعون التعبير الحر عن وجهة نظرهم.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، وهو إعادة توحيد ألمانيا على أساس مبدأ تقرير المصير، اتفقت عليه أهم الأحزاب السياسية الألمانية اتفاقًا إجماعيًّا؛ ففي برلين كون الحزب الديمقراطي الاشتراكي مع الديمقراطيين المسيحيين حكومة عقدت العزم على أنْ تقاوم أي هجوم ضد العاصمة الألمانية، وليست هذه المقاومة قائمة على استخدام السلاح، ولكنها مقاومة تقوم على قوة الإقناع، واستخدام الدروس التي استخلصت من فصول التاريخ الألماني، سواء منها الفصول الزاهرة أو الفصول الحالكة السواد.

وينص دستور ألمانيا الغربية على أنَّ: «برلين جزء من الجمهورية الاتحادية الألمانية، وأنَّ القوانين الأساسية في الجمهورية الاتحادية الألمانية مقيدة لبرلين»، وليس معنى هذا أنه في السنوات الماضية كانت برلين الغربية والجمهورية الاتحادية قد كفتا عن احترام اتفاقيات الدول الأربع المحتلة بالنسبة لبرلين وكل ألمانيا، ولكن هذه القوانين كان الغرض منها مساعدة ألمانيا الغربية لبرلين الغربية، وذلك بجانب المعونة المادية التي تقدمها الدول الغربية، وفي أثناء النمو الاقتصادي ببرلين الغربية قبلت العاصمة الألمانية بدورها أنْ تتسلم

هذه المعونة لا بصفة إحسان، ولكن كمساهمة مؤقتة في انتشالها، وفي نفس الوقت بذلت جهودها في سبيل تقليل مقدار هذه المعونة.

وقد كان من نتائج الحرب تحول برلين إلى جزيرة في بحر أحمر يحيط بها من كل جانب، إذ يبلغ الحد بين برلين الغربية وقطاع برلين الشرقي مع المنطقة الشرقية في ألمانيا ١٥٠ كيلو مترًا طوليًّا، وعلى كل من يرغب في السفر إلى برلين أنْ يقطع هذه الطرق، التي اتفق عليها الحلفاء بعد عام ١٩٤٥، ويبدو سخف هذا الموقف واضحًا في أنَّ الممرات الهوائية الثلاثة المؤدية إلى برلين يمكن لجميع الخطوط الجوية التابعة للدول الثلاث استخدامها، ولكنها محرمة على الخطوط الجوية الألمانية، ومن بين المطارات الثلاثة الواقعة في ألمانيا الغربية يستخدم مطار واحد هو مطار تمبلهوف للأغراض المدنية، أما نقل البضائع بين ألمانيا الغربية وبرلين فقاصر على نقطة واحدة عند الحدود، تمر بها السكك الحديدية وأربع طرق للسيارات وممرين مائيين للسفن.

وتفرض السلطات الشيوعية ضرائب على من يستعمل هذه الطرق تصل سنويًّا إلى ملايين الماركات، وقبل الحرب كان يدخل برلين من ناحية الغرب فقط ٤٠ قطارًا للبضاعة في كل يوم، أما اليوم فلا تزيد هذه القطارات على ١٣، والفحم من السلع الرئيسية التي تستوردها برلين من ألمانيا الغربية، أما المواد الخام والمنتجات التي لم يتم صنعها، فإنها تدخل المدينة عن طريق السكك الحديدية أو الطرق البرية أو المائية.

وبالرغم من هذا كله أثبتت برلين أنها مصدر إنتاجيٌّ مهم لألمانيا والاقتصاد الدولي، فقد ارتفعت نسبة العمل والإنتاج ارتفاعًا مطردًا، بالرغم من أنَّ برلين مضطرة إلى قبول عدد كبير من اللاجئين الذين هربوا من المنطقة الشرقية، وفي نفس الوقت تستعد المدينة لليوم الذي ستصبح فيه مرة أخرى عاصمة ألمانيا المتحدة.

وعندما افتتح مستر هلتون الأمريكي فندقه الجديد في برلين في أواخر العام الماضي عد ذلك تعبيرًا عن الثقة التي تملأ نفوس أهل برلين في إعادة بناء مدينتهم، حتى تأخذ مكانها بين المدن العظمى في أوروبا، وعندما أعيد بناء مجلس الرايشستاج، وهو مبنى البرلمان الألماني السابق الذي أحرقه هتلر، لم يكن هذا مجرد تعبير عن الذكريات العاطفية، ولكنه كان تعبيرًا عن الرغبة في توحيد ألمانيا على أساس السلم والحرية.

إنَّ برلين الغربية اليوم هي ملتقى عالمين مختلفين، وليس لها رغبة في إملاء أسلوب حياتها وعقائدها السياسية على الشعوب الأخرى، ولكنها قد انحازت إلى الديمقراطية الغربية، فالحرب قد انتهت منذ أربعة عشر سنة، ولكن برلين لا تزال مقسمة، ولقد دفعت

هذا الثمن نظير حقبة سوداء في تاريخ ألمانيا، ولكنها تستعد بشجاعة لأن تصبح مرة أخرى عاصمة كل ألمانيا وأحد مراكزها الصناعية.

إنَّ الجمهورية الاتحادية تؤمن ببرلين، وعلى أساس هذه العقيدة وسعت الشركات الهندسية الكهربائية العالمية، مثل شركات كروب وسيمنس وبورسج فروعها في برلين.

ولقد قام المهندسون العالميون في سنة ١٩٥٧ بتخطيط رسوم المعرض الدولي، الذي أصبح اليوم رمزًا لبرلين الحديثة فقد زاره ١,٤ مليون من الناس من ٧٤ دولة مختلفة، وقد جاء ٣٥٪ من هؤلاء الزائرين من برلين الشرقية أو من المنطقة الشرقية لألمانيا، وهذا دليل على الدور الهام الذي تقوم به برلين الغربية في عرض أساليب الحياة الغربية.

ومن السهل في الوقت الحاضر أنْ ينتقل المرء من برلين الغربية إلى برلين الشرقية، وفي مراكز مراقبة الحدود يسأل المسافر إذا كانت لديه سلعة تجارية، كما تفحص بطاقة تحقيق شخصيته، وفي حوانيت برلين الشرقية لا يستطيع الزائر الذي حضر من الغرب أنْ يشتري شيئًا؛ لأنه محرم عليه أنْ يحصل على المارك الشرقي وهو عملة الجمهورية الديمقراطية الألمانية، ولكنه يقابل بالحفاوة في مكتبات المنطقة السوفييتية ومكاتب الدعاية وفي مسارح برلين الشرقية.

أما بالنسبة لسكان ألمانيا الشرقية، فإن زيارتهم لبرلين الغربية قد تنطوي على خطر، إذ قد تكون سببًا في أنْ توجه إليهم تهمة «الهرب من الجمهورية»، وبوليس الشعب يراقب بدقة حدود برلين ومحطات السكك الحديدية والقطارات، والطرق المؤدية إلى المدينة، زد على ذلك أنه من الصعب — طبقًا لأوامر البرخت — على سكان ألمانيا الغربية أنْ يزوروا أقاربهم في المنطقة الشرقية، وعليهم أنْ يحصلوا على تصريح كتابي قبل أنْ يسمح لهم بالدخول إليها، ففي هذا الجزء من ألمانيا الذي يتحكم فيه البرخت وجروتفل لا نجد أثرًا لحرية التنقل، التي تضمنها ألمانيا الغربية لجميع الألمان على حد سواء.

ففي وسط المنطقة التي يحتلها السوفييت تقع عاصمة ألمانيا المناضلة من أجل كيانها الحاضر، والتي تستعد للقيام بواجباتها في المستقبل، ولو قدر لها أنْ تنجح فسوف تحتاج علاوة على مواردها الخاصة، إلى مساعدة الجمهورية الاتحادية، وكل الأمم الأخرى التي تتمسك بمبدأ حق الإنسان في تقرير مصيره.

وسكان ألمانيا الغربية وكلهم ثقة في هذه المعونة يباشرون أعمالهم، ويأملون أنْ يكون من المستحيل أنْ ينتصر الظلم في مدينتهم على الحق مرة أخرى، ففي مدينة مجزأة وفي أرض ممزقة، يعلم أهل برلين الغربية أنَّ الاتحاد والحرية لا ينفصلان.

لماذا ينتقلون من الشرق إلى الغرب؟

يتطلع مئات الألوف من الألمان في منطقة ألمانيا الشرقية إلى برلين، لا باعتبارها عاصمة لألمانيا، وإنما باعتبارها البوابة التي تؤدي إلى الحرية والانتقال إلى العالم الحر.

فلقد بلغ عدد من تركوا منازلهم وأراضيهم ومتاعهم في ألمانيا الشرقية، وفروا إلى برلين الغربية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية أكثر من نصف تعداد سكان برلين، وقدره ثلاثة ملايين ونصف مليون ألماني.

وقد أصبح هذا السبيل الحيوي إلى الحرية مهددًا في المدة الأخيرة، ذلك أنَّ مدينة «برلين» لا يمكن أنْ تقبل مطالب الشيوعيين الخاصة بعدم قبول ألوف اللاجئين الذين يجتازون الحدود في طريقهم إلى الحرية.

فعلى الرغم من القيود الجديدة التي فرضت على الحدود، والتي تفصل بين القطاعين الشرقي والغربي من المدينة، فإن الفرار عبر برلين لا يزال أسهل منه في أية منطقة أخرى على طول الستار الحديدي الذي يفصل ألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية، وما على اللاجئ — إذا لم يكن يحمل متاعًا — إلا أنْ يدفع ما يوازي قرشين ليمر ببساطة من برلين الشرقية إلى برلين الغربية، ومعنى مروره على هذه الصورة — بطبيعة الحال — أنْ يتخلى عن كل ما يملكه من متاع وممتلكات شخصية في الشرق.

وتواجه ألمانيا الشرقية اليوم مشكلة جديدة، هي مشكلة تزايد عدد المهاجرين من المتعلمين والفنيين من سكانها إلى ألمانيا الغربية، فلقد بلغ عدد من هاجروا منها نحو ٢٠ في المائة من سكانها، وعدد الأطباء الذين هاجروا منها إلى ألمانيا الغربية في سنة ١٩٥٨ بلغ ١٢٠٠ طبيب؛ أي أكثر من ١٠ في المائة من مجموع الأطباء كلهم، وعدد من هاجر منها من المدرسين وأساتذة الجامعات ٣٥٠٠ أستاذ، وذكر المسئولون في ألمانيا الغربية أنَّ

الهجرة إلى ألمانيا الغربية كبدت ألمانيا الشرقية خلال السنوات العشر الماضية خسارة في الأطباء والعلماء والمدرسين تبلغ ربع عددهم هنالك.

وتدل الإحصائيات الأخيرة على أنَّ نسبة الهجرة في السنوات الأخيرة زادت كثيرًا عما كانت عليه في الماضي، فقد زادت نسبة المهاجرين من الأطباء في سنة ١٩٥٨ إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه في سنة ١٩٥٧، وزادت نسبة المهاجرين من الأساتذة في سنة ١٩٥٨ عن ضعف ما كانت عليه في العام الذي سبقه، فإذا عرف أنَّ الأطباء والمدرسين يعاملون في ألمانيا الشرقية معاملة أفضل بكثير مما يعامل غيرهم، ويتناولون مرتبات أكبر مما يتناول زملاؤهم في ألمانيا أدركنا المغزى العميق الكامن وراء هجرتهم.

ولقد اعترفت صحافة ألمانيا الشرقية نفسها بهذه الحقيقة، وقالت: إنَّ الهجرة — ولا سيما هجرة المحترفين والعلماء — تثير الكثير من الصعوبات في وجه الحكومة، ونقلت صحيفة «نيوزايت» التي تصدر في برلين الشرقية عن طبيب من ليبزيج وزعيم سياسي، هو الدكتور جيروهوسل أنَّ نسبة الأطباء إلى السكان في ألمانيا الشرقية لا تتجاوز ١ إلى ٣ آلاف أو ٤ آلاف، وكانت النسبة الطبيعية هي ١ إلى ١٦٠٠ أو ١٩٠٠ في حين أنها في ألمانيا الغربية ١ إلى ٧٠٠، وتعتقد وزارة الشئون الألمانية في حكومة ألمانيا الغربية أنَّ في المنطقة الشرقية من ألمانيا عددًا كبيرًا من المستشفيات الخاصة، لا يجد العدد الكافي من الأطباء للعمل في الوقت الحاضر.

ومما لا شك فيه أنَّ هذا النقص في عدد الفنيين والمدربين يعتبر عقبة كبيرة في سبيل تحقيق برامج التنمية، التي وضعتها حكومة ألمانيا الشرقية.

وثمة أمر آخر يزعج حكومة ألمانيا الشرقية، وهو سمعتها التي تسير من سيئ إلى أسوأ فيما يختص باستمرار الهجرة، فقد ذكر اللاجئون الذين وصلوا أخيرًا أنَّ أسباب هجرتهم تعود إلى المساوئ الاجتماعية والسياسية، أكثر مما تعود إلى التذمر من الحالة الاقتصادية، وأنَّ هذا السيل من المهاجرين الذي زاد عن ثلاثة ملايين ونصف مليون مهاجر منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، دليل على أنَّ الحياة فيما يصفونه بأنه «جنة العمال» غير مرضية ولا مقبولة، وهي في الوقت نفسه دليل صارخ على أنَّ الحكومة فشلت في أنْ تحقق للناس المطالب الأساسية التي ظلت الشيوعية تعد بها الجموع، وقد وصفت الهجرة المتواصلة بأنها «نتيجة وعي الرأي العام الذي لا يمكن لأحد أنْ يتجاهله».

ويذكر اللاجئون أسبابًا شتى لهجرتهم إلى العالم الحر، فيقول معظمهم: إنَّ المسألة ليست مسألة نقص في الغذاء والكساء على الرغم من قلة الغذاء والكساء، ولكنها ذلك

الضغط الذي يتعرضون له في كل ما يعملون، وعدم وجود الفرصة التي تتيح للمرء حق الاختيار، وتكيف حياته وآماله وفق ما يشاء ويهوى.

ويذكرون من بين هذه الأسباب أيضًا الوسائل البوليسية المطبقة في ألمانيا، والشعور بالقلق فيما يختص بمستقبل ألمانيا الشرقية.

ويقولون: إنَّ الخوف من تشديد القيود على الحدود والضغط المتزايد لنبذ الدين، والقلق على مصير الأطفال في مجتمع شيوعي، والشك في إمكان زيارة الأقارب في المنطقة الغربية، والمشاكل الأخرى كتخفيض الأجور، وزيادة ساعات العمل مقابل نفس الأجر، كل هذه من بين أسباب الهجرة إلى الغرب.

وتقول حكومة ألمانيا الشرقية: إنَّ ألمانيا الغربية تشجع الهجرة من الشرق، ولكن الواقع غير هذا، فإن إذاعات ألمانيا الغربية تحض الألمان على ألا يهاجروا «إلا إذا كان لديهم من الأسباب ما يدفعهم إلى الخوف على مصيرهم وحياتهم»، أما الأسباب التي لا تمانع ألمانيا الغربية من أجلها في أنْ يهاجر إليها من يريد من سكان ألمانيا الشرقية، فهي أنْ يكون المهاجر عرضة للاعتقال، أو أنْ تكون حياته هناك معرضة للخطر، أو أنْ يكون ممن لا يطيقون الخضوع للشيوعية، أو ذا كفاءة أو مهارة خاصة، أو أنْ يكون مهاجرًا يريد أنْ ينضم إلى أقاربه.

ومع ذلك كله فإن الهجرة مستمرة بالرغم من أساليب الإرهاب التي تتبعها ألمانيا الشرقية ضد المهاجرين، والمهاجرون أنفسهم يعترفون بأنه ليس من السهل على الإنسان أنْ يصبح لاجئًا، فيغادر بلادًا أحبها، وكانت له فيها ذكريات ومصالح، ويترك أصدقاءه وأحباءه ليبحث عن مسكن جديد وعمل جديد، ولكنه في ذلك غير مخير، ولعل خير ما ذكر في هذا هو ما قاله أحد المسئولين في ألمانيا الغربية من أنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ ينظر نظرة عابرة إلى هذه الهجرة المستمرة على أوسع نطاق.

مشكلة اللاجئين

زرت في برلين أحد معسكرات اللاجئين، حيث يستقبل جميع الذين يفدون من برلين الشرقية، أو من المنطقة الشرقية بوصفهم من اللاجئين الذين يرغبون في الحياة والاستقرار ببرلين الغربية، أو بغيرها من مدن الجمهورية الألمانية الاتحادية.

وشهدت استجواب بعض اللاجئين الذي يتم في هذا المعسكر، فيسأل اللاجئ أولًا عن تاريخه، ثم عن أسباب هربه من الشرق إلى الغرب، وتطلب منه المستندات الدالة على صدق أقواله، وتقوم بالاستجواب لجان متعددة تتكون كل لجنة منها من ثلاثة أشخاص.

والقاعدة التي تسير عليها هذه اللجان، هي قبول جميع اللاجئين بصفة عامة؛ وذلك لأنهم من الألمان، ومن حقهم طبعًا أنْ يستوطنوا بلادهم، ولكن اللجان تحاول قدر الإمكان أنْ تكتشف أمر الجواسيس، الذين ينتقلون إلى الغرب بوصفهم من اللاجئين، وهم في الحقيقة من العملاء والجواسيس، الذين يعملون لحساب جهات معادية للدولة، كما تحاول اللجان اكتشاف أمر المجرمين الذين هربوا من الشرق بعد ارتكاب الجرائم؛ خوفًا من المحاكمة أو من العقاب.

ولهذا الغرض أقيمت معسكرات اللاجئين، فهي بمثابة مراكز الانتقال المؤقتة التي يقيم فيها القادمون من الشرق لفترة محدودة، إلى أنْ يتم توزيعهم على مختلف المدن في الولايات الألمانية، وينقل اللاجئون من برلين إلى هذه المدن بواسطة الطائرات على حساب الدولة.

ولذلك فإن معسكرات اللاجئين في برلين ليست معسكرات للاجئين من نوع معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في غزة، أو اللاجئين الهنود في باكستان، وإنما هي معسكرات انتقال من شرق ألمانيا إلى غربها، وقد سألت عما إذا كانت المعسكرات تضم بعض المدارس لتعليم

الأولاد الذين يفدون مع والديهم، فقيل لي: إنه ليس هناك مدارس بداخل المعسكرات، ولكن إذا طالت إقامة المهاجرين أو اللاجئين بالمعسكر أرسل الأولاد إلى المدارس القريبة.

ويفد أكبر عدد من اللاجئين إلى غرب ألمانيا من ولاية سكسونيا، التي يعيش فيها أكبر عدد من السكان، وقد صدر ببرلين في عام ١٩٥١ قانون خاص لتنظيم حركة اللاجئين، وبلغت جملة عدد اللاجئين من ألمانيا الشرقية إلى نهاية عام ١٩٥٨ نحو ٣ ملايين لاجئ، وزعوا على برلين الغربية ومدن ألمانيا الغربية الأخرى.

وكان من الطريف السؤال عن حرف اللاجئين والمهن التي ينتسبون إليها، وهذا هو نصيب كل مهنة من اللاجئين:

الصناعة والأعمال اليدوية	١٩,٣٪
التجارة	١١,٨٪
الطب (وما يتصل به)	٥,٨٪
الزراعة	٤,٥٪
الموظفون	٤,٤٪
المثقفون والأدباء	٢,٦٪
الفنيون	٢,١٪
أرباب المعاشات	٦,٨٪
نساء بدون صناعات	١٠,٣٪
أطفال	٢٠,٣٪
طلبة	٢,٢٪
مهن أخرى متنوعة	١٠٪
	١٠٠

ويتمتع اللاجئون السياسيون إلى غرب ألمانيا بمزايا لا يستهان بها، عندما يثبت لولاة الأمور صحة الأسباب التي هاجروا من أجلها إلى الغرب.

ومن هذه المزايا حقهم في الحصول على عمل قبل غيرهم، ومنها الإعفاء من الضرائب لفترة محدودة، وحقهم في الحصول على مسكن قبل غيرهم ...

ومن المزايا التي يحصل عليها اللاجئ إذا كان من موظفي الحكومة، حقه في الحصول على وظيفة مماثلة لوظيفته القديمة في حكومة ألمانيا الغربية.

وقد ضعف إقبال اللاجئين في عام ١٩٥٩، ويقول المسئولون، إنهم يتوقعون أنْ يكون الرقم الإجمالي لعدد اللاجئين في عام ١٩٥٩ أقل من مجموعهم في عام ١٩٥٨.

وليست هناك سياسة موضوعة لتوزيع اللاجئين على بلدان ألمانيا الغربية، كما أنه ليس هناك أي إلزام على اللاجئ لقبول الاستقرار في مكان معين، ولكن يوزع اللاجئون بوجه عام حسب مقدرة الولايات المختلفة على استيعابهم، وطبقًا لإمكانياتهم في الصناعة، وقد أرسل أكبر عدد من اللاجئين إلى ولاية وستفاليا.

وترحب ألمانيا الغربية باللاجئين عمومًا، وتفتح أبوابها لهم، ولكنها تجني أعظم الفائدة من أصحاب المهن ورجال الصناعة، ولذلك فإنها تسهل لهم الاندماج في ميدان الأعمال.

ويلاحظ أنَّ مدينة برلين تحيط بها من كل جانب منطقة ألمانية تخضع للسيطرة الشيوعية، والوصول إليها خاضع لرحمة السلطات التي تسيطر على المنطقة الشرقية، ولم يستطع الحصار السوفييتي لبرلين الغربية من ١٩٤٨ إلى ١٩٤٩ أنْ يصل إلى هدفه من إخضاع هذا الجزء من برلين لإدارة السوفييت، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت برلين جزيرة الأمل لكل أفراد الشعب الديمقراطي، الذي هاجر من «ديمقراطية الشعب».

وحتى نهاية ١٩٥٦ سجل ٩١٥٠٠٠ لاجئ ألماني أسماءهم في برلين الغربية؛ لكي يعتبروا لاجئين، بقي منهم حوالي ١٥٠٠٠٠ في برلين الغربية، بينما رحل الآخرون إلى الجمهورية الاتحادية الألمانية بطريق الجو.

ففي نهاية الحرب العالمية الثانية أصبحت برلين — العاصمة الألمانية التي كانت مركزًا صناعيًّا وإداريًّا مهمًّا يسكنها ٤,٥ ملايين من السكان — أصبحت مدينة مهزومة مخربة فقدت مليونًا واحدًا من سكانها، ووضعت المدينة تحت الإدارة المشتركة للحلفاء المنتصرين، وبقيت كذلك حتى عام ١٩٤٨.

وبعد الانقسام الذي تم في مجلس الحلفاء للرقابة، تكونت من القطاعات الأمريكية والبريطانية والفرنسية برلين الغربية الحرة.

ويبدو من مظاهر أيامنا هذه أنَّ المصائب التي تتكرر يوميًّا، تعتبر بمرور الزمن شيئًا عاديًا، وطرد ملايين من الشعب الألماني منذ عام ١٩٤٥ أكبر دليل على ذلك، فبسبب

الكراهية والتعصب الجنسي طرد ١٦ مليونًا من المواطنين الألمان، أو مواطنين أجانب من أصل ألماني منذ ١٩٤٥، كما تم ترحيل الملايين، ومات كثيرون في طريقهم إلى المنفى، فوصل أربعة ملايين منهم في بادئ الأمر إلى المنطقة السوفييتية في ألمانيا، ووصل ثمانية ملايين إلى الجمهورية الاتحادية الألمانية، وفي الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و١٩٥٨ هرب مليون من الأربعة ملايين الذين وضعوا مؤقتًا في المنطقة السوفييتية، وما لبث أنْ لحق بهم ثلاثة ملايين من المواطنين الألمان من المنطقة التي يحتلها السوفييت، ففي ألمانيا الغربية اليوم تسعة ملايين من المطرودين، وأكثر من ثلاثة ملايين لاجئين من المنطقة الشرقية في ألمانيا، وقد استمرت هذه الحركة منذ نهاية الحرب ولا تزال مستمرة.

إنَّ السلطات الشيوعية تشعر بالأثر السيئ لهذه الحركة على حالتها الاقتصادية والسياسية، ولذلك فقد أنشأت نقط مراقبة قوية للحدود بين منطقتها، وبين الجمهورية الاتحادية، وقد أحكم نظام المراقبة باستمرار وخفضت تصاريح الخروج، وأقفلت منطقة الحدود في بعض الظروف.

ونظرًا لأن كل هذه الإجراءات لم توقف فرار أفراد الشعب المضطهد، فقد أدخلت تشريعات خاصة تعاقب كل محاولة للفرار أو الاستعداد له.

وبالرغم من هذا كله بقيت برلين الغربية جزيرة الأمل لجميع الألمان في المنطقة الشرقية؛ وذلك لأن برلين الشرقية لا يمكن فصلها طبيعيًّا عن الجزء الغربي للمدينة، وبذلك يستفيد من فرصة الهرب هذه نسبة هائلة من رعايا المنطقة الشرقية، الذين يبحثون عن الحرية، فينتقلون من برلين الشرقية إلى برلين الغربية، ومنها ينتقلون إلى الجمهورية الاتحادية الألمانية بطريق الجو.

ومن المدهش أنَّ المستوى المهني والاجتماعي لحركة الهجرة الهائلة هذه يتغير باستمرار، وهذه التغيرات تعكس الاتجاهات الاقتصادية والشيوعية، فإن فرض الزراعة الجماعية في عام ١٩٥٣ مثلًا نتج عنه زيادة في نسبة الفلاحين بين اللاجئين، أما القرار السياسي الذي ينص على زيادة ملكية الحكومة، أو اشتراك الحكومة في التجارة وفي الحرف والصناعة، فقد كان له أثره المباشر في زيادة عدد اللاجئين الذين ينتمون إلى هذه المهن، كما زادت مجهودات الحكم الشيوعي، التي بذلت في التأثير على النشاط في الجامعات والمدارس من نسبة عدد المدرسين والطلبة اللاجئين، وتصل نسبة العمال الهاربين من دولة «العمال والفلاحين» في بعض الأعوام إلى ٥٠٪. أما الظاهرة التي تسترعى النظر في سنة ١٩٥٨، فقد كانت هرب نسبة كبيرة من الطبقة المستنيرة.

كما أنَّ هناك ظاهرة مدهشة حقًّا، وهي أنَّ نسبة الشبان والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨–٢٥ سنة، تبلغ في الغرب ثلاثة أضعاف نسبة عددهم بين سكان المنطقة الشيوعية.

وطالما بقيت برلين حرة، فإنها ستظل جزيرة الأمل في نظر هؤلاء اللاجئين، فهذه المدينة هي المنقذ إلى الحرية؛ إلى حياة تحترم حقوق الإنسان، كما نص عليها ميثاق الأمم المتحدة.

عندما يهرب الأديب!

منذ بدأ تقسيم ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وذلك السيل الفياض من اللاجئين الهاربين من المنطقة الشرقية إلى ألمانيا الغربية لا يكاد ينقطع، ففي كل شهر يهاجر آلاف من السكان تاركين أوطانهم ميممين شطر الجمهورية الاتحادية، حيث يجدون السبيل ليبدءوا في بناء حياة جديدة لأنفسهم، ويشيدون بأيديهم صرح وجودهم في ملجئهم ومأواهم الجديد.

وهذا السيل الذي لا ينقطع يفيض على جوانب برلين الغربية يوميًّا، إلا أنَّ هذه الأفواج تأتي في سكون، ثم تنصرف غالبًا إلى أقسام ألمانيا الغربية الأخرى، حيث تندمج فيها عاملة منتجة.

ولكن قد يأتي السيل يومًا بموجة صاخبة تحدث ضجة كبرى.

ومنذ مدة قصيرة حدثت هذه الضجة عندما ظهر بين أولئك اللاجئين إلى غرب ألمانيا، البروفيسور الفريد كانتوروفيتش كبير علماء ألمانيا في المنطقة الشرقية.

فقد زاد التجاء كانتوروفيتش إلى ألمانيا الغربية من القلق، ورفع أصوات المعارضة بين الطبقة المفكرة من أبناء منطقة الاحتلال السوفييتي لألمانيا، وكان التجاؤه إلى الغرب كالنار التي سرت بين زملائه السابقين ومعاونيه من العلماء، وذلك منذ أعلن التجاءه في بيان أذاعه من محطة «برلين الحرة».

إنَّ الرجل الذي ولد في برلين في عام ١٨٩٩، ترك ألمانيا في سنة ١٩٣٣، عالمًا له تأثيره، ومحدثًا مفوهًا، ومتزعمًا للأدب الشيوعي في «المسرح».

لقد كافح كضابط في الفرقة الدولية الحمراء في إسبانيا، وذهب بعد ذلك عبر فرنسا إلى أمريكا، حيث كان في أثناء الحرب العالمية الثانية مندوبًا للقسم الخارجي لإذاعة كولومبيا.

في معسكر اللاجئين: بعض اللاجئين من ألمانيا الشرقية وهم ينتظرون دورهم في الاستجواب بواسطة المسئولين، ثم الاستقرار في ألمانيا الغربية.

وبعد الحرب عاد إلى الوطن، وسكن ألمانيا الوسطى، حيث أصدر صحيفته «شرق وغرب»، التي كانت تعد القنطرة التي تربط المفكرين في كل من شطري ألمانيا، ولقد تحول امتياز هذه الصحيفة منذ عام ١٩٤٩ إلى الحزب الواحد في المنطقة السوفييتية.

وبعد عام ١٩٥٠ اقتصر نشاط كانتوروفيتش على العمل في المعاهد في الجمهورية الديمقراطية الألمانية، أما أسرة كانتوروفيتش فقد ظلت تعيش في برلين الغربية إلى أنْ لحق بها كانتوروفيتش نفسه.

ولقد ترك كانتوروفيتش في برلين الشرقية مكتبة كاملة، تضم حوالي الثمانية آلاف مجلد، كتب على هوامشها ما لا حصر له من العبارات والإشارات والملاحظات، التي تعد — بلا شك — المنبع والأساس لكل أعماله التالية مدى الحياة.

وخلف كانتوروفيتش أيضًا في برلين الشرقية معظم أصول كتاباته، وما لديه من مواد مجموعة ومحفوظة، فضلًا عن الوثائق والكتب المتبادلة بين كل من هاينريش مان وهمنجواي وهرمنهسه والآخرين.

ويعمل كانتوروفيتش في الجمهورية الاتحادية في الأدب، فضلًا عن أنه ينوي نشر أعمال هاينريش مان، وأنْ يضع بحثًا في نقد السياسة الثقافية في المنطقة الشرقية.

ولقد كتبت جريدة «فرانكفورتر ألجمينة» أنه يؤخذ من الأحاديث الواردة من برلين الشرقية أنَّ موجة القلق بين المثقفين، وهي التي قد بدأت منذ حوادث بولندا والمجر، هذه الموجة لم تهدأ حدتها، ولم يخف وقعها بعد.

وكان التجاء كانتوروفيتش بمثابة تأكيد لحقيقة الحالة القائمة، التي دوى بها صوت اللاجئ عند حديثه عن ذلك الظلم الذي يرزح تحته الألمان في المنطقة الشرقية، كما أنَّ هذه الحادثة نفسها تدل دلالة واضحة على فشل سياسة الحزب الواحد.

ولقد وصل كانتوروفيتش إلى برلين في زيارة قصيرة للجمهورية الاتحادية الألمانية، ولكنه ما لبث أنْ تقدم للحكومة الاتحادية، برجاء أنْ تمنحه «الحماية والإقامة الدائمة وحقوق المواطن الكاملة».

كان كانتوروفيتش عضوًا في الحزب الشيوعي منذ ٢٦ عامًا، وتقلد عدة وظائف هامة في ألمانيا الوسطى، كان أستاذًا للأدب الألماني الحديث، ومديرًا لمعهد الدراسات الجرمانية بجامعة هومبولت في برلين الشرقية، ومديرًا لوثائق ومحفوظات هاينريش مان، فضلًا عن اختياره مديرًا لمخلفات هاينريش مان الكاملة.

ومن الأسباب التي جعلت كانتوروفيتش في وضع محرج مع سلطات جمهورية ألمانيا الديمقراطية، أنه رفض أنْ يوقع مع الآخرين قرارات الولاء التي رفعها اتحاد المؤلفين في خريف ١٩٥٦، كما أنه رشح البروفيسور المجري لوكاس، الذي اختير وزيرًا للثقافة في حكومة ناجي، لجائزة نوبل للآداب، وكان هذا العمل هو الآخر موضع نقد شديد من حكومة أولبريشت.

وجاء بعد ذلك الدافع الأخير لهربه، وهو ذلك الهجوم المنظم الذي قام به الحزب ضد معهده الجرماني.

ولقد أوضح كانتوروفيتش عند هربه في بيان مثير للعواطف، أذاعه من محطة «برلين الحرة» الأسباب التي دفعته إلى الهجرة من الشرق إلى الغرب، فقال: إنه في الحقيقة كان قد اعتزم الهرب منذ أعوام طوال، ولكنه ظل يؤجل تنفيذ ذلك القرار الخطير، آملا أمل اليائس في قرب الخلاص، لقد كان يأمل في أنْ تكون «القسوة الزائدة والحمق والعنف

وعدم الاكتراث بالقوانين، وذلك السيل اللانهائي من الأكاذيب والأباطيل وخنق الحريات الروحية»، كان يأمل أنْ يكون كل ذلك عملًا تقتضيه فترة الانتقال فحسب، ولكن جاءت حوادث ١٧ يونيو ومأساة المجر في عام ١٩٥٦، ففقد كل خيط من خيوط الأمل في الإصلاح، واضطر إلى الهرب.

قال ويلي برانت

في يوم ٢٤ يونيو عام ١٩٥٩ لبيت دعوة لمقابلة ويلي برانت مع جمع صغير من الزملاء، وكنت قد طلبت مقابلة خاصة مع «العمدة»، ولكنني ما لبثت أنْ أدركت أنه كان من المستحيل عليه أنْ يلبي طلبي في الوقت الذي يزور فيه برلين كل يوم مئات من أكبر الصحفيين في العالم، وكلهم يتهافتون على مقابلة ويلي برانت، فهو الشخصية التي تتمثل فيها مطالب أهل برلين، وهو أشبه بآلة ألمانية لا تكف عن الحركة والنشاط، وصافح ويلي برانت الصحفيين جميعًا، ثم بدأ بإلقاء بيان قال فيه:

لا أريد هنا أنْ أذكر بالتفصيل المطالب التي تقدمت بها الحكومة الروسية أخيرًا، فهي معروفة جيدًا للكافة، وكذلك يعلم الناس جميعًا رد برلين القاطع الذي قدم في مدى ساعة من نشر المذكرات الروسية، فإن انتخابات برلين البرلمانية التي تمت يوم ٧ ديسمبر ١٩٥٨ كانت أوضح دليل على إرادة السكان، ففي ذلك اليوم توجه ٩٢,٩٪ من الناخبين إلى صناديق الانتخابات، وأوقعوا هزيمة ساحقة بالشيوعيين برفضهم المطالب الروسية.

وقد كان لحزب الاتحاد الموالي للشيوعيين مطلق الحرية في الانتخابات، وكان له أنْ يستعين بحماية البوليس؛ لكي يستطيع عقد اجتماعاته، وبالرغم من المجهودات التي بذلها عدد كبير من أنصار الحرب الذين دخلوا برلين الغربية، وبالرغم من فيضان وسائل الدعاية، وبالرغم من الوعد والوعيد فإن الشيوعيين حصلوا على ٢١٠٠٠ صوت فقط؛ أي ١,٩٪، وكان قرار سكان برلين هذا أبلغ إعلان نشر على العالم.

ويلي برانت عمدة برلين، وهو أنشط العاملين في سبيل وحدة العاصمة الألمانية.

وعندما زرت باريس بعد الانتخابات بأسبوع أشرت إلى هذا القرار، عندما ذكرت موقف برلين في اجتماع وزراء الخارجية للدول الغربية الثلاث وجمهورية ألمانيا الاتحادية، فقد اتخذ وزراء الخارجية نفس القرار الذي سبق أنْ قررته برلين، عندما أعلنوا أنَّ المقترحات السوفييتية لا يمكن قبولها، وأصروا على أنَّ المعاهدات لا يمكن أنْ تنتهي من جانب واحد، وأنه لا يمكن لجانب واحد أنْ يرفض شروط معاهدة وقعتها الدول الأربع.

ولقد تبع رفض وزراء خارجية الدول الغربية إعلان بالإجماع من جانب دول حلف شمال الأطلنطي تضمن تأييده.

ولقد تضمنت النشرة النهائية لمجلس دول حلف شمال الأطلنطي تفسيرًا مقنعًا لقرارات برلين، ووافقت الدول الأعضاء في المجتمع الغربي بالإجماع على أنه من المستحيل إجابة طلبات الاتحاد السوفييتي.

ولقد عبر المؤتمر عن عزيمته الصادقة في المحافظة على حقوق برلين وحريتها بما في ذلك حق الدخول إلى برلين دون أي عائق، كما عبر بوضوح عن وجهة النظر القائلة بأن مشكلة برلين لا يمكن فصلها عن مشكلة ألمانيا كلها، وأنه يجب لمصلحة السلام إيجاد حل لمشكلة ألمانيا، والمشاكل التابعة لها مثل مشاكل الأمن الأوروبي والأمن الدولي.

أما محاولة الوصول إلى اتفاق منفصل خاص ببرلين فلا يعتبر حلًّا، وكلنا نعلم أنَّ حرية مدينتنا لا يمكن الاحتفاظ بها أبدًا إنْ لم تختفِ الحدود غير الطبيعية التي تفصل بين مدينتنا وبلادنا، وهذه هي رغبة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني على جانبي الحدود ولكن، إلى أنْ يتم هذا، يجب أنْ نعلم أيضًا أننا في حاجة إلى الثبات والعزيمة الصادقة؛ لكي نمنع أي تغيير في الوضع الحاضر يقوم بإحداثه جانب واحد.

فنحن — سكان برلين — نعلم جيدًا أنْ أي ضعف أو أي تساهل أو أي علامة من علامات الاستسلام لمطالب موسكو سوف تكون قاضية علينا، ونحن نأمل، وكلنا ثقة أنْ يقف أصدقاؤنا إلى جانبنا في عزم وثبات، إذ إنَّ لهم حقوقًا وعليهم التزامات هنا في برلين، بل وفي ألمانيا كلها.

ولكن الحزم لا يجب أنْ يحول بين التفاوض، بشرط سحب التهديدات الصادرة من جانب واحد، وجدية الرغبة في المفاوضات، فالمشكلة الألمانية يمكن أنْ تحل — كما ذكر في البيان الصادر من هيئة حلف دول شمال الأطلنطي — مع المشاكل الكبرى الأخرى، التي تجعل العالم اليوم يعيش في حال من القلق والخوف.

وليس من هدفنا أنْ نقترح سياسة خارجية مستقلة لبرلين؛ لأننا نعلم أنَّ المشاكل الداخلية مرتبطة بمشاكل أخرى داخل القارة أو في مناطق أخرى؛ ذلك لأن برلين رمز لحالة القلق والاضطراب التي تسود أوروبا.

فمن الطبيعي أنَّ مجموعة المشاكل كلها، وعلى رأسها مشكلة برلين، سوف تبقى دائمًا الشغل الشاغل للدول الكبرى، كما أعتقد أنَّ تبادل المذكرات سوف

يؤدي إلى سلسلة من المحادثات الدبلوماسية، وإلى مؤتمرات يتم فيها تبادل وجهات النظر بين الدول الكبرى.

إنَّ أهالي برلين وغيرهم قد يتعرضون لضغط شديد في المستقبل القريب، ولكنهم لن يفقدوا قوة أعصابهم، فعلى العالم الحر أنْ يظهر إيمانه وعزيمته ومقدرته على أنْ يبني ويوحد هذه المدينة روحيًّا وماديًّا.

وكلما كانت العزيمة قوية كلما أدت الاتصالات إلى نتائج مثمرة تتحقق على وجه السرعة، إنَّ برلين ستسير قدمًا بنفس الهدوء والإيمان في الطريق الذي اختارته لنفسها خلال فترة الحصار في السنوات العشر الماضية، فقد اعتبرته الطريق الوحيد المؤدي إلى مستقبل أفضل، وقد يكون هذا الطريق صعبًا، ولكن من الممكن التغلب على الصعاب إذا استطاع مواطنونا في الجمهورية الاتحادية، وأصدقاؤنا في الغرب، وفي العالم أجمع أنْ يقفوا بجانبنا.

قلت لويلي برانت!

لما انتهى ويلي برانت من إلقاء بيانه قال: إنه على استعداد للإجابة على جميع الأسئلة التي توجه إليه. وقد انهالت عليه الأسئلة من جوانب الحجرة التي كنا نجلس فيها، ولكنني كنت ألاحظ، وربما كنت مخطئًا أنَّ الرجل يوجه الحديث بصفة خاصة إلى الركن الذي كنت أجلس فيه مع زملائي؛ بل إنه كثيرًا ما وجه نظره إليَّ والتساؤل ظاهر في عينيه كأنه يقول: «وأنت! أليس عندك ما تسأل عنه؟»

وبدأت في النهاية أوجه الأسئلة التي كانت قد اختمرت في رأسي، فقلت له: هل حماس السكان للوحدة في برلين الشرقية، أو قل في ألمانيا الشرقية كلها، يوازي حماسكم هنا في برلين الغربية أو في ألمانيا الغربية كلها؟

وقال ويلي برانت بعد تفكير: للوصول إلى إجابة دقيقة على هذا، يجب أولًا أنْ نفرق بين رغبات الشعب ورغبات الحكام. وليس هناك أي شك في أنَّ الشعب الألماني كله — سواء في الشرق أم في الغرب — يشترك في شعور واحد من ناحية توحيد عاصمته أو بلاده، وهو يريد أنْ يتم هذا التوحيد بكل سرعة.

أما رغبات الحكام فلا شك أيضًا أنها تتعارض مع رغبات الشعب؛ وذلك لأن هؤلاء الحكام يحرصون قبل كل شيء على مناصبهم الرفيعة، التي حصلوا عليها في ظل الوضع الحالي، وهم يعرفون جيدًا أنهم سيفقدون هذه المناصب عندما يتم التوحيد، ولذلك فإنه ليس من مصلحتهم أنْ يتم.

وهنا وجهت لويلي برانت السؤال الثاني، فقلت له: لقد عرف الألمان ببراعتهم في التنظيمات السرية والحركات الخفية، فهل يمكن أنْ نستنتج مثلًا، وجود هيئة أو هيئات سرية مكونة من ألمان في الشرق وألمان في الغرب، وهدفها توحيد ألمانيا؟

وضحك ويلي برانت، وهو يستعد للإجابة على السؤال، وظهرت على وجهه ابتسامة ماكرة ثم قال: المفروض طبعًا أنه إذا كانت هناك حركة أو حركات سرية تهدف لتوحيد ألمانيا أو برلين، فالمفروض — كما قلت — أنني لا أعرف بها ولا يعرف بها غيري أيضًا؛ ولذلك فإنني لا يمكن أنْ أقدم جوابًا صحيحًا على هذا السؤال، وليس في إمكاني أنْ أقول يوجد أو لا يوجد!

ولكن هذا لا يمنعني من القول بأنه يوجد في الوقت الحاضر تعاون بين شرق ألمانيا وغربها في كثير من النواحي، ومنها مسائل النقل والمرور والتبادل الثقافي والتبادل التجاري ومسائل النقد.

ومن ناحيتنا نحن؛ أي من ناحية الغرب، لا نرى أي مانع يحول دون مضاعفة هذا التعاون.

والواقع أنني لم أقنع بالإجابة المقتضبة التي سمعتها على سؤالي، وخاصة بعد هذه الابتسامة الماكرة التي رأيتها بوضوح على وجه عمدة برلين، وأعظم المجاهدين في سبيل توحيدها، فقلت له: هل تقصد بهذا أنكم تتركون المسألة للأقدار، وأنه ليست لديكم أية خطة موضوعة للعمل على توحيد ألمانيا وتحقيقها؟

وضحك ويلي برانت من جديد، وكأنه أحس بشيء من الحرج ثم أجاب قائلًا: لا! لست أقصد هذا؛ فنحن نجاهد ونعمل بكافة الطرق السلمية من أجل تحقيق أهدافنا، ولكن يجب أنْ تلاحظ أنني لست من رجال السياسة، أنا رجل إدارة فقط ورجال السياسة في بون هم الذين يضعون الخطط السياسية، ويتخذون القرارات اللازمة لتنفيذها!

وكان الوقت قد تقدم، و«العمدة» مرتبط بمواعيد أخرى، فأعلن آسفًا أنه لن يتمكن من الإجابة إلا على سؤال واحد آخر.

وأطلقت السؤال فورًا، فقلت: هل يمكن أنْ تذكر لنا كيف «تتصور» الحل الذي ستنتهي به مشكلة ألمانيا، أو مشكلة برلين على الأقل؟!

وهنا وضع «العمدة» يده على جبهته، وظهرت إمارات التفكير العميق على وجهه، ثم استرخى على مقعده الكبير، ونسي الموعد الذي أشار إليه، وراح يروي فصلًا مثيرًا من فصول التاريخ، وهو فصل الحرب العالمية الثانية التي نشبت في عام ١٩٣٩.

قال ويلي برانت: نحن الآن في شهر يونيو من عام ١٩٥٩، فلنعد ٢٠ عامًا إلى الوراء حيث نجد أنفسنا في شهر يونيو من عام ١٩٣٩.

فهل كان هناك من يتصور في ذلك الوقت أنَّ حربًا عالمية ستنشب في شهر سبتمبر من نفس العام؟

وهل كان هناك من يتصور تطور الحوادث التي تعاقبت؟

لقد كانت الحوادث كلها مفاجآت: دخول إيطاليا الحرب، ثم دخول الولايات المتحدة، سقوط دول أوروبا تباعًا وبسرعة لا يمكن لإنسان أنْ يتصورها.

وأخيرًا جاءت المفاجأة الكبرى، وهي إعلان ألمانيا الحرب على الاتحاد السوفييتي، وربما كانت هذه هي نقطة التحول في مجرى الحرب!

هل كان هناك من يتوقع أنْ يختلف الحليفان بهذه السرعة، فيطعن أحدهما الآخر على غير انتظار!

ولذلك فإنني أيضًا في تصوري لحل مشكلة برلين أو مشكلة ألمانيا، التي تبدو شديدة التعقيد، إنما أعتقد أنَّ تطورات الأحداث العالمية والأوروبية لا بدَّ أنْ تؤدي في نهاية الأمر إلى حل للمشكلة الألمانية بما فيها مشكلة برلين!

واختتم ويلي برانت الاجتماع بهذه العبارة:

> بل انظروا إلى حالة ألمانيا نفسها منذ عشر سنوات، إذا كانت ٢٠ سنة تبدو بعيدة، فقد كانت حالة ألمانيا في السنوات التي تلت الحرب، وحتى عام ١٩٤٩ تبدو يائسة تدعو إلى القنوط، ولم يكن أعظم المتفائلين بالمستقبل يظن أنَّ في وسع هذه البلاد أنْ تحقق ربع ما حققته من التقدم في خلال هذه الفترة القصيرة من عمر الدولة.
>
> إذن، دعونا نتطلع إلى المستقبل، وفي ظلال هذا المستقبل دعونا نتفاءل ونأمل!

جولة في برلين

مدينة برلين العاصمة القديمة للرايش، من أعجب مدن العالم في الوقت الحاضر، فهي تنقسم إلى قطاعين، القطاع الشرقي الذي يتبع الجمهورية الديمقراطية ذات النظام الشيوعي، والقطاع الغربي وهو يتبع الجمهورية الاتحادية — الفيدرالية.

والقطاع الشرقي يشمل خمسي المدينة، أما الغربي فيشمل ثلاثة أخماسها، ويعيش في الشرق نحو ١,١ مليون في حين يعيش في الغرب نحو ٢,٢ مليون، وفي الشرق ثمانية أحياء، وفي الغرب ١٢ حيًّا، وتوجد في المدينة كلها ٤٢ بحيرة.

والحدود القائمة بين شرق برلين وغربها حدود وهمية، والانتقال من الشرق إلى الغرب، وبالعكس لا يحتاج من المرء إلا إلى ركوب المترو الذي يمر بكل أحياء المدينة، ولكن تحت سطح الأرض، ثم النزول في المحطة التي تعجبه سواء في الشرق أم في الغرب، وليس معنى هذا أنَّ المترو فقط هو الذي يربط القطاع الشرقي بالقطاع الغربي، فهناك سيارات الأومنيبوس، ولكنك إذا استعملت الأومنيبوس فإن عليك أنْ تستعمل أومنيبوس الغرب والشرق معًا؛ لأنه محظور على أومنيبوس الغرب أنْ يسير في الشرق، والذين يعبرون الحدود على دراجاتهم وأقدامهم وفي سياراتهم كثيرون أيضًا.

ولنبدأ جولتنا في برلين الغربية

من الأحياء الجميلة الجديدة في برلين الغربية ذلك الحي الذي استدعي لتخطيطه مهندسون من جميع أنحاء العالم. فقامت به عمارة سكنية كبيرة صممها سويدي، وعمارة أخرى صممها برازيلي، وثالثة صممها أمريكي. وهكذا أصبحت العمارات في هذا الحي مزيجًا عجيبًا من الهندسة الدولية المختلفة الأشكال، وقد أطلق على هذا الحي اسم حي «هانرا».

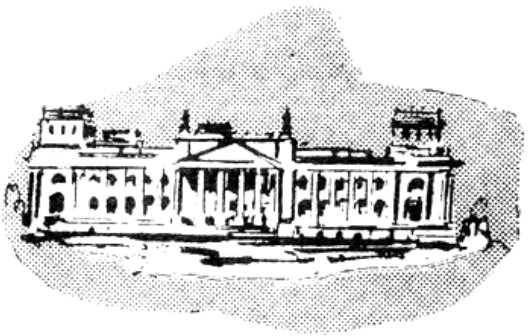

بناء الرايشستاج، برلمان العهد السابق الذي دمر أثناء الحرب، ويعاد الآن بناؤه.

وفي أثناء مروري على مقربة من هذا الحي، رأيت بناءً غريبًا لا يمكن أنْ يعرف أحد بالضبط ما هو إلا إذا اقترب منه.

قال الدليل وهو يشير إلى البناء: هل رأيتم مثل هذا البناء من قبل؟

وقلنا: لا.

وهنا ابتسم الدليل وقال: ألا ترون أنه يشبه الجاراج؟

وكدنا نقول نعم!

لولا أنه أشار إلى برج منعزل غريب الشكل في أعلاه جرس، فعرفنا في الحال أنَّ البناء عبارة عن كنيسة، وقلنا: إنها كنيسة!

فأجاب الدليل، وهو يضحك: نعم، ولكن الشبه الهندسي العجيب بين بنائها، وبين الجاراج دعانا إلى تسميتها «جاراج الأرواح»!

ومثل هذا يقال أيضًا عن ذلك البناء الذي بناه الأمريكيون وأهدوه إلى مدينة برلين، وهو البناء الذي يجتمع فيه مجلس برلين النيابي، وتقام فيه انتخابات الرئاسة، وتعقد فيه الاجتماعات الكبرى والحفلات المهمة ذات الطابع الدولي والمؤتمرات.

لقد أطلق الناس على هذا البناء اسم «الصدفة المقلوبة»؛ وذلك لأن شكل سقف البناء أشبه فعلًا بصدفة البحر إذا قلبتها.

أجمل وأكبر صالات الاجتماع في برلين الغربية، ويطلق عليها اسم «الكونجرس هاليه»، وفيها تعقد المؤتمرات والحفلات الكبرى وسقفها أشبه بالصدفة المقلوبة!

ولكن على الرغم من مظاهر العمران والرخاء والسعادة والمرح في برلين الغربية، فقد واجهت هذه المدينة بعد انتهاء الحرب أزمات حادة قاسية، كانت أهمها أزمة المساكن وأزمة توقف دولاب الصناعة في المدينة.

ولكن استطاع سكان برلين بما عرف عنهم من جد ونشاط وصبر، أنْ يتغلبوا على أزمة المساكن بإنشاء نحو ١٠٠٠٠٠ منزل، ثم تمكنوا بعد ذلك من إنقاذ اقتصادهم المتدهور، بعد أنْ كان قد انكمش عقب الحرب بنسبة ٧٥٪ نتيجة التدمير وسياسة تفكيك المصانع التي اتبعت بعد الحرب.

ولكن التغلب على أزمتي المساكن والصناعة، ليس معناه أنَّ برلين قد تغلبت على كل العقبات، وحلت جميع المشكلات بحيث انتهت جميع آلامها.

لقد واجهت برلين الغربية مشاكل ومصاعب كثيرة، كان أهمها ذلك الحصار الذي فرض عليها في عام ١٩٤٨، فكان سببًا في تأخر القيام بعملية الإصلاح عامًا كاملًا! وما زالت برلين حتى اليوم تعيش في ظل ظروف قاسية ومصاعب متعددة.

فلأسباب سياسية قطعت الصلة بين غرب برلين وموارد تموينها الطبيعية، فاللبن يرسل إليها من أماكن بعيدة كبافاريا وسكسونيا السفلى، وكذلك الفواكه والخضر تنقل إليها من مسافات بعيدة بواسطة السيارات والقطر والطائرات والعربات، بالإضافة إلى كافة المواد الخام المستعملة في الصناعة والبناء، باستثناء الفحم الناعم الذي يأتيها من المنطقة الروسية، ويسلم إليها مقابل كميات من الحديد والصلب، وفقًا لشروط اتفاقية تجارة المناطق التي تجدد كل عام، وتبلغ نسبتها نحو ١٪ فقط من تجارة غرب ألمانيا.

ولكن جميع هذه المصاعب لم تمنع برلين الغربية من الاحتفاظ بمكانتها كمركز للثقافة الألمانية كلها، ففيها فرقة أوركسترا برلين «الفيلهارمونيك» ذات الشهرة العالمية الكبيرة، وهي تعد بحق سفير برلين وألمانيا المتنقل في العالم أجمع، أما دور المسارح فتتنافس في اجتذاب النظارة من الألمان، ومن الأجانب الذين يزورون العاصمة، كما تعتبر أوبرا برلين من أوبرات الدرجة الأولى في أوروبا، وهي تفخر برواياتها الممتازة التي اشتهرت بها.

ولنذهب الآن إلى برلين الشرقية

في جولة سريعة قمت بها مساء يوم وصولي إلى برلين، أشار صديقي الألماني إلى أنقاض بناء متهدم في القطاع الشرقي، وقال لي: هنا اتخذ جوبلز وزير دعاية هتلر قاعدته، ومن هنا كان يملأ الدنيا كلامًا وصراخًا!

وقلت له: ولكن فيم يستعمل البناء الآن؟

وضحك الرجل ثم قال: لنفس الغرض بالضبط؛ فهو مقر دعاية حكومة ألمانيا الشرقية!

وكان الصمت هو أبلغ تعليق على ما قال الرجل، ولكن ذهني هو الذي سبح بين حوادث عشرين عامًا بالضبط؛ من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٩.

وبين الأنقاض كذلك رأيت منظرًا محزنًا آخر؛ رأيت بقايا ما كان أعظم فندق في أوروبا، وهو فندق «أدلون»، الذي كان الناس قبل الحرب يتزاحمون أمام أبوابه ليتطلعوا إلى فخامته وإلى نزلائه، لقد نال شهرته في وقت من الأوقات باعتباره أفخم فنادق العالم كله!

كل ما بقى منه جناح واحد دلفنا إليه من باب الموردين، وبدت الحسرة على وجه الرجل، وهو يقول لي: أرستقراطية العالم كانت تنزل هنا في الماضي، لقد رأيت وأنا أعمل فيه مهراجات الهند يؤمونه مع خدمهم، إنني لا أكاد أعرف المكان!

وسألته إذا كان هذا الجناح ما يزال يستعمل كفندق، فأخبرني أنه أعد لنزول الوفود الرسمية التي تزور برلين الشرقية.

لقد نهب كل ما كان في الفندق، ولم تبق إلا «المراتب» التي اشتهرت بأنها أحسن «مراتب» في برلين كلها! وفي حجرة الطعام لم يكن عدد الموائد يزيد على عشر.

والآن، فلنتوغل قليلًا في برلين الشرقية إذ لا بد لنا، كما يقول الدليل من زيارة المدفن التذكاري الذي أقامه الاتحاد السوفييتي تخليدًا لذكرى ضحاياه في معارك ألمانيا، إنه من أعظم المدافن التذكارية التي شهدتها في حياتي، وأول ما يواجهك فيه تمثال للأم، «الأم روسيا»، وهي تبكي أبناءها الذين استشهدوا في الحرب.

وفي مدخل المقبرة التذكارية دفن الروس سويًّا أربعة من المحاربين من مختلف الرتب في الجيش، فمنهم جندي «النفر» وصف ضابط، وضابط برتبة كابتن وجنرال …

وتضم المقبرة التذكارية بعد ذلك من الجانبين ١٦ لوحة تذكارية كبيرة، نقش على كل لوحة منها جزء من تاريخ الحرب العالمية الثانية؛ لكي يوضح اعتداء ألمانيا الهتلرية، وأنها هي التي بدأت العدوان. وقد وزعت هذه الصور الحية التي تمثل قصة الحرب على ١٦ نصبًا باعتبار أنَّ الاتحاد السوفييتي يتكون من ١٦ ولاية، وأنَّ كل ولاية قدمت نصبًا منها.

وأقيم في مواجهة مدخل المقبرة تمثال هائل لجندي روسي، تشبه ملامحه ملامح ستالين، وإنْ كان الدليل قد أكد لي أنه لا يمت إلى ستالين بصلة، وقد رفع الجندي الروسي في يده اليمنى سيفًا حادًّا عريض النصل، وحمل في ذراعه اليسرى طفلًا صغيرًا. والمقصود بذلك تصوير الجندي الروسي، وقد تولى بسيفه الحاد حماية الطفل الصغير الذي يمثل مستقبل الاتحاد السوفييتي.

وتحت قدمي الجندي الروسي ظهر الصليب المعقوف (ألسواستيكا) وقد تحطم، وقد كان الصليب المعقوف هو الشارة الرسمية لألمانيا الهتلرية، حتى إنها اتخذت منه علمها.

وتحت التمثال الضخم توجد حجرة صغيرة تصعد إليها بواسطة سلم يتكون من درجات عديدة، وعلى جدران هذه الحجرة الصغيرة ظهرت صورة كبيرة من الموزايكو

الجميل، تتبين فيها ١٦ شخصًا بين رجال ونساء، وقد حملوا جميعًا في أيديهم زهورًا كتب عليها باللغة الروسية:

السلام للأموات!

بوابة براندنبرج، ويطلق عليها الآن بوابة الحرية؛ لأنها المنفذ السهل من الشرق إلى الغرب.

والرجال والنساء الستة عشر يمثلون جمهوريات الاتحاد السوفييتي الستة عشر، وقد أقيمت المقبرة كلها وسط حدائق خضراء تشبه الغابة الصغيرة، وزرعت الأشجار على جانبيها في تناسق جميل.

وقد أقام الروس في برلين الغرب مقبرة أخرى لذكرى قتلاهم، ولكنها ليست في ضخامة هذه المقبرة.

ولنعد الآن لنتجول في أكبر شوارع برلين الشرق، وهو شارع ستالين أو الستالين آلية، وفيه أكبر المحال التجارية التي تملكها الدولة وتدار لحسابها، والعمائر الضخمة التي تراها على جانبيه تجعلك تظن أنك في موسكو!

ولكنك ما تكاد تخرج من هذا الشارع، أو تنتقل منه إلى شارع من الشوارع الخلفية حتى تصادفك الأنقاض من جديد.

لقد مضى على الحرب ١٤ سنة، ولكنها تبدو هنا كما لو كانت ١٤ يومًا فقط، ولكن إذا اجتزت بوابة براندنبرج، ومررت بتلك اللافتة التي ترى صورتها إلى يسار هذا الكلام، وقد كتب عليها: «انتبه! فأنت الآن تغادر برلين الغرب» إذا وليت ظهرك لهذه اللافتة وتوغلت في برلين الغرب، أحسست أنك دخلت عالمًا جديدًا!

في الشرق

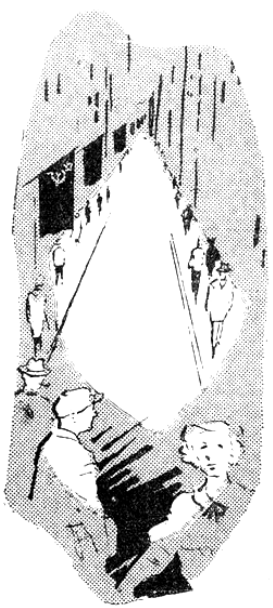

في الساعة السابعة صباحًا من كل يوم من أيام العمل يتقدم شاب أشقر نحيل اسمه «هورست موللر» نحو أمه قبل أن يغادر المنزل، ويقبلها مودعًا إياها في مطبخ المسكن

الذي يقطنه في برلين الشرقية، ثم يقفز بعد ذلك فوق دراجته، ويسير في الشوارع المقفرة التي تمتلئ جدرانها باللافتات الملأى بالعبارات المختلفة، وأهمها:

يا أمي العزيزة! كافحي من أجل تحريم القنبلة الذرية.

وفي الغرب!

وإذا ما وصل هورست إلى الأعمدة السوداء التابعة لبوابة براندنبرج الضخمة توقف؛ لكي يقدم أوراق تحقيق شخصيته أو هويته لأحد رجال «الفوبو»، وهم رجال بوليس ألمانيا الشرقية من لابسي الملابس الرسمية الخضراء.

وبعد ذلك يركب هورست دراجته من جديد مخترقًا الستار الحديدي، ويتجه نحو برلين الغربية.

إنَّ هورست ليس واحدًا من اللاجئين؛ لأنه بعد أنْ ينتهي من عمله اليومي في إحدى الشركات الهندسية ببرلين الغربية، يعود أدراجه بهدوء إلى بيته الذي يقع في منطقة

السيطرة الشيوعية، ومعه زوج من الأحذية أو زجاجة من النبيذ، أو أي شيء آخر يمكنه أنْ يعود به دون أنْ يتعرض للمسئولية.

إنَّ هورست ليس إلا واحدًا من ٤٥٠٠٠ ممن يعبرون الحدود كل يوم، ويطلق عليهم الألمان «جرنز جانجر»، وهم الذين يسكنون في قطاع من برلين، ولكنهم يعملون في القطاع الآخر، ويقول هورست: «إنني سعيد حقًّا فإنني أحصل على المواد التموينية رخيصة في شرق برلين، بينما أستمتع في الوقت نفسه بالكماليات والرخاء في غربها!»

هذه هي الحقيقة المدهشة عن الحياة التي يحياها عابرو الحدود هؤلاء، أو على الأصح سكان برلين جميعًا، فلقد تعلموا أنْ يعيشوا في ظل الحرب الباردة بنفس الطريقة التي يتعلم بها الإنسان استعمال الذراع الآخر إذا شل أحد ذراعيه، فالستار الحديدي بالنسبة إليهم ليس إلا محطة يمرون بها في طريق انتقالاتهم اليومية.

أما الجندي سجفريد شيللر، الذي يقود إحدى الدبابات، فقد قام بنصيبه في قتل عدد كبير من الأمريكيين والروس في الحرب العالمية الثانية، وهو يعمل الآن في جيش ألمانيا الغربية، وهو يعلل عودته إلى الجندية تعليلًا عمليًّا بقوله: «الجندية حرفتي ومرتبها أعلى من مرتب البوليس!» وفي نفس الوقت يقوم الروس من ناحية وقواد ألمانيا السابقون بتدريب جيش لألمانيا، وبظهور هاتين القوتين العسكريتين المتنافستين أخذ شطرا ألمانيا يبتعدان عن بعضهما.

وهناك مثل آخر يمثله و«نزل وت» و«فردناند جلوكنر»، اللذان كانا صديقين حميمين، لهما ماض مشترك وعواطف وطموح، تزوج فردناند من أخت ونزل، وفي سنة ١٩٤٥ طردهما التشيك من بلاد السوديت، وتفرقا وسط الجيوش والمهاجرين، فنزح ونزل إلى الغرب حيث وجد عملًا في مصنع نسيج، ثم اشترى أخيرًا قطعة أرض من مدخراته، أما فردناند فقد استقر في الشرق وانضم إلى الشيوعيين، حيث أصبح رئيس عمال في مصنع للحديد في كالبي.

وقد حدث يومًا أنْ قرر ونزل أنْ يقضي أسبوعًا مع فردناند في شرق ألمانيا، وهناك أخذ يراقب ما يجري حوله، وقد لاحظ أنَّ فردناند قلما يبقى في منزله، بل إنه يذهب إلى المصنع صباحًا ومساءً، ولم يكن يفعل ذلك من أجل الحصول على أجر إضافي، بل كانت هناك اجتماعات تعقد لزيادة الإنتاج أو جلسات سياسية، أو تمرينات على إطلاق البنادق مع فرقة العمال، وكان ونزل يقضي وقته كله في المشي في كالبي يقارن شوارعها الموحشة

بموطنه في مدينة وتزلر، فلاحظ أنَّ العربات الخاصة نادرة، كما لم تكن هناك مساكن خاصة، وأنَّ هناك قيودًا على استهلاك اللحم والسكر، وأنَّ الكماليات تكاد تكون معدومة، ومع ذلك قال له فردناند أنه سعيد، وأنه يملك مستلزمات الحياة العصرية، وأنَّ هناك أملًا في التحسين، ولكن ونزل فاجأه بقوله بأنه من المستحيل أنْ يكون سعيدًا وهو محاط بالخوف، فهو يسدل الستائر عندما يتحدث، وأنَّ ابنه هورست لا يعرف سوى معلومات مشوهة عن ألمانيا الغربية، وأنهم لا يذهبون للكنيسة، وأنهم محرومون من الحرية.

أما هو فبعد أنْ ينتهي من عمله لا يجبر على حمل السلاح، وأنه يصلي لله متى شاء، وأنَّ الدولة لا تسيطر لا على جسمه ولا على روحه، ولذلك فإنهما لا يستطيعان التفاهم، وأحس ونزل بأن هناك فراغًا من عدم الثقة وسوء التفاهم يحول بينهما، وهو يمثل مأساة العلاقات الإنسانية في ألمانيا التي شطرت.

مبنى السفارة السوفييتية في برلين، وهو من أضخم العمائر، ويقع على مقربة من الحدود الفاصلة بين برلين الشرق وبرلين الغرب.

إنَّ سكان برلين يعلمون تمام العلم كيف أن نيكيتا خروشوف طلب من حلفاء الغرب أنْ يخرجوا من برلين، وحدد لهم يوم ٢٧ مايو ١٩٥٩ على الأكثر، ولكن رغم ذلك فإن الحلفاء لم ينسحبوا بوصة واحدة، ومع ذلك فبينما يتناقش الدبلوماسيون، ويتطلع العسكريون بقلق نحو الأفق، اعتاد سكان برلين على الحياة في وسط العاصفة التي تنذر من وقت لآخر بأن تتحول إلى حرب عالمية ثالثة.

إنَّ سكان برلين يفخرون بأن يطلقوا على أنفسهم «سكان الجزيرة»، فإن برلين الحرة التي تبلغ مساحتها ٣٠٠ ميل مربع، هي عبارة عن جزيرة فريدة وسط المنطقة الشيوعية، منقطعة الصلة بأرض ألمانيا الغربية التي تبعد عنها مسافة ١١٤ ميلًا، وأسهل وسيلة للاتصال بينهما هي الطائرات.

ومشرب «كرانزلر» حيث يستمتع الناس بسهراتهم المرحة في برلين الغربية، يقع على بعد بضعة أميال من الحواجز التي أقامها الشيوعيون وسط الشوارع.

ولو ركبت سيارة تاكسي من مقهى كرانزلر متجهًا إلى الشرق لمدة عشر دقائق، لوجدت نفسك أمام مبنى السفارة السوفييتية الهائل، وهو يقع في شارع انتردن لندن، الذي كان يعتبر فيما مضى أهم شوارع برلين.

كان سكان برلين في الماضي يعتبرون مدينتهم فريدة في العالم، فنساؤها أرشق النساء، وحديث الناس فيها كله مرح، وحركة المرور أسرع منها في أية بقعة أخرى من ألمانيا، أما اليوم فقد أصبحت برلين الغربية حصن الحرية المحاصر، ورخاؤها وأنوارها المضاءة بالنيون تجعل نصفها الشيوعي يبدو كقرية صغيرة مظلمة بجانب العاصمة.

وفي برلين الغربية يتنافس أشهر مهندسي العالم في بناء المنازل والعمارات الشامخة بحي هانزا، حيث تبدو جدرانها الزجاجية وهي تناطح السماء وتطل على حديقة الحيوان.

أما في برلين الشرقية، فإن المساكن الشعبية ذات المظهر الخارجي الخداع، التي تقع في شارع ستالين (ستالين آليه) ليست إلا عبارة عن جدران ضخمة من الأحجار لا أثر فيها للذوق أو الفن، وقد امتدت في تماثل تحت أعين تمثال ستالين الجامدة!

برلين ترقص فوق بركان!

الحياة في برلين من أعجب ما يكون فعلًا، فإنك مثلًا إذا أردت أنْ تتصل تليفونيًّا وأنت في برلين الغربية بالقطاع الشرقي لهذه المدينة، فليس في استطاعتك أنْ تتصل اتصالًا مباشرًا، بل إنَّ هذا الاتصال يتم بطريقة معقدة، إذ تتصل غرب برلين أولًا بفرانكفورت في ألمانيا الغربية، ومنها إلى ليبزج في ألمانيا الشرقية، وليبزج هي التي توصل المكالمة بعد هذا ببرلين الشرقية! ومعنى هذا أنَّ الحديث بين أحياء مختلفة في مدينة واحدة يلف مسافة لا تقل عن ٦٢٥ ميلًا!

وتستعمل برلين مجموعتين من العملات النقدية، فإذا أراد شخص من سكان برلين الغربية أنْ يزور بعض أقاربه في برلين الشرقية ركب الترام إلى ميدان بوتسدام، ودفع الأجر بالمارك الغربي، ولكنه بعد أنْ يغادر هذا الترام ليستقل الترام الذي يسير في القطاع الشرقي من المدينة يضطر إلى استعمال عملة جديدة، هي التي يستعملها سكان الشرق!

إنَّ في برلين مجموعتين من رجال الإدارة، وشكلين من العملة، وهيئتين للبوليس، ومطارين لا صلة لأحدهما بالآخر، وإدارتين لكل عمل من الأعمال المتصلة بالخدمات العامة، كالمجاري أو النقل المشترك أو البريد. وسكان مدن ألمانيا الغربية الذين يرسلون خطابات بالبريد الجوي إلى أقارب أو أصدقاء لهم من سكان برلين الشرقية لا تصل خطاباتهم إلى مطار برلين الغربية رأسًا، ثم ترسل إلى برلين الشرقية، وهذا هو الوضع الطبيعي المنطقي، ولكن هذه الخطابات تصل أولًا إلى براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا، ومنها بالطائرة إلى برلين الشرقية!

ولا تضم برلين قوتين للبوليس فحسب، ولكنها تضم أيضًا محطتين منفصلتين للغاز، ومحطتين للقوة الكهربائية، وشبكتين للقنوات، ومطارين ليس بينهما أي اتصال.

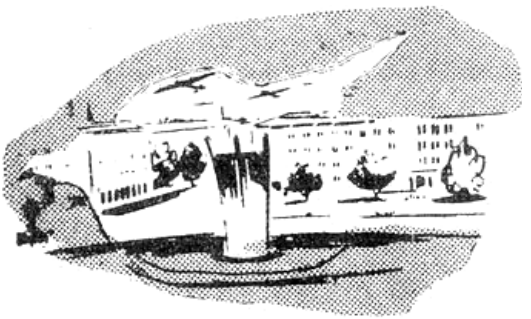

مطار تمبلهوف في برلين الغربية، وبواسطته أنقذت من حصار ١٩٤٨-١٩٤٩.

وفي وسع «الهر مولر» الذي يعيش في برلين الغربية أنْ يزور أقاربه الذين يعيشون في شرق برلين دون صعوبة والعكس صحيح كذلك، ولكنه إذا أراد أنْ يصحب أحد هؤلاء الأقارب إلى مسافة تبعد بما لا يزيد ولو ألف ياردة خارج برلين، لزيارة مقبرة والده، أو لأن والده كان يملك حديقة خارج بوابات برلين، فإنه لا يمكنه أنْ يفعل ذلك دون أنْ يحصل على إذن خاص يسمح له بالذهاب إلى هذا المدى، وليس من المؤكد أنْ يحصل على هذا الإذن، بل ربما كان في إمكانه أنْ يحصل عليه مرة واحدة في العام إذا كان سعيد الحظ.

وهكذا الحياة في هذه المدينة العجيبة، ويمكن لكل من يريد أنْ يتثبت من هذه الحقيقة أنْ يقف في ميدان بوتسدام، حيث بوابة براندنبرج، وحيث كانت حركة المرور في الماضي تتدفق دون توقف، فسيجد اليوم بدلًا من ذلك لافتة كتب عليها:

انتبه: فأنت الآن تغادر غرب برلين.

ولكن هناك أسبابًا أعمق من هذه، هي التي جعلت كل شيء في برلين يوجد مكررًا. ففي برلين لا يلتقي قطاعان من مدينة قسَّمها الاحتلال إلى قسمين فحسب، بل في برلين يلتقي عالمان. فجنود الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تستعمل «الجرنفالد» كساحة للتدريب، ومن الجهة الأخرى يقابلهم في المنطقة التي يحتلها السوفييت «جيش الشعب»، وبعض وحدات من القوات السوفييتية!

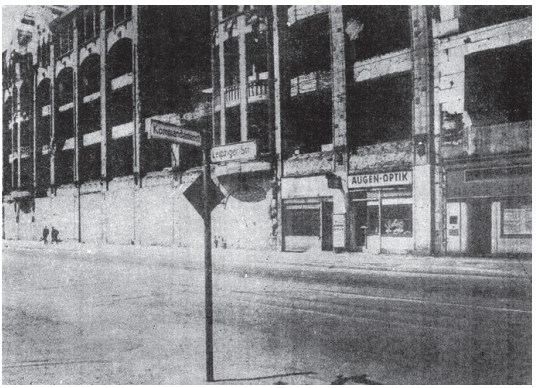

شارع ليبزيج في برلين الشرقية بحالته الراهنة.

وفي برلين وحدها يستطيع المرء بسهولة اختراق الستار الحديدي، والمقارنة عن كثب بين لونين من التفكير والقانون والمبادئ والاقتصاديات، مما يجعل برلين اليوم أغرب مدينة في العالم أجمع.

وفي برلين عملتان: مارك ألمانيا الغربية «د. م .D. M» الذي يساوي ٤ منه الدولار الأمريكي، ومارك ألمانيا الشرقية المرتبط بالعملة السوفييتية، ويشتري ١٦ منه الدولار الأمريكي، ويستبدل المرء المارك الغربي في قطاع ألمانيا الشرقي بنسبة ١:٤؛ أي أنَّ كل مارك غربي يساوي ٤ ماركات شرقية، ويحظر على أهالي برلين الشرقية العودة إلى ديارهم من برلين الغربية، ومعهم أية ماركات غربية.

وكثيرون من أهالي برلين الشرقية يبتاعون يوميًّا بعض السلع من القطاع الغربي، على الرغم من أنهم يتعرضون بذلك لمصادرة هذه السلع ولعقوبة السجن إذا ضبطوا، فاستيراد البضائع من القطاع الغربي محرم إذ في شراء الأهالي لمنتجات برلين الغربية إضرار بمخازن البيع الحكومية والجمعيات التعاونية.

ومن الملاحظ أنَّ الأحذية من السلع التي يقبل عليها أهالي برلين الشرقية عادة، وبعض محال الأحذية في برلين الغربية تعد فناءً مغبرًا يسير فيه صاحب الحذاء الجديد بعض الوقت قبل أنْ يعود إلى الشرق حتى لا يبدو نعل الحذاء جديدًا، ومع ذلك فما أكثر ما صادر بوليس

الحدود بألمانيا الشرقية الأحذية الجديدة مستبدلًا إياها «بصنادل» من القش، توزع على أصحاب الأحذية المصادرة مقابل مارك ونصف عن كل صندل.

وليس أدل على التناقض بين الحياتين في برلين الغربية والشرقية من هذه الإعلانات، التي يطالعها المرء عند الخط الفاصل بين القطاعين، فاللوحة المعلقة عند مدخل القطاع الغربي تعلن عن أنواع السجائر وحفلات الموسيقى وروايات السينما في حين أنَّ اللوحة المعلقة عند مدخل القطاع الشرقي كتب عليها:

ساعدوا البوليس الشعبي في مكافحة الجاسوسية الأجنبية وعملائها.

وتشكو ربات البيوت في القطاع الشرقي من نقص أشياء كثيرة، أو لأنها غالية، أو لأنها من أنواع غير جيدة بالمرة، والأجهزة الكهربائية تتعطل بسبب انقطاع التيار الكهربائي، وإذا احتاجت الواحدة إلى شراء بعض المواد الغذائية فعليها التوجه إلى مخزن معين في ساعة معينة، وهي تفضل الإسراع بالوقوف في الطابور حتى تجد لها مكانًا، ثم تقرر بعد ذلك نوع السلعة التي تريدها على ضوء البضاعة المعروضة فقد تكون مما تحتاج إليه.

ويجب على كل صاحب بيت أو مسكن في برلين الشرقية الاحتفاظ بدفتر يسجل فيه أسماء أفراد البيت الذين يقيمون لديه أكثر من ثلاثة أيام، وكذلك أسماء الغرباء الذين ترددوا على البيت، ومدة إقامتهم. وأسوأ من هذا كله حالة التجسس السائدة، ففي كل بيت شخص مكلف بالرقابة على من في داخله، والتحري عن ميولهم السياسية، وهو الذي يوزع عليهم بطاقات التموين، وهو المرجع الرسمي، ومجرد وشاية منه تحرم المرء من الحصول على عمل إنْ لم تلق به إلى السجن!

وعين الحكومة في القطاع الشرقي تمتد إلى جميع أعمال الأفراد الخاصة، فإذا اشترى أحدهم سلعة كآلة كاتبة، أو سجادة مثلًا ينبغي عليه التوقيع على إقرار بأنها لاستعماله الخاص! وذلك خشية بيعها في القطاع الغربي للحصول على النقد، وكثيرًا ما يمر رجال التفتيش بعد أسابيع من الشراء للتحري عن مصير السلعة، والويل للمشتري إذا لم يكن يحتفظ بالسلعة إذ لا بد له في هذه الحالة أنْ يثبت بالدليل سبب فقدها، أو عدم وجودها.

وقد حدث مرة أن اشترت سيدة من برلين الشرقية سجادة صغيرة، ثم حملتها هدية منها إلى ابنتها التي تعيش في برلين الغربية بمناسبة زواجها، وكان عقابها السجن لمدة شهرين رغم أنها قدمت للمفتش صورة من عقد زواج ابنتها كدليل على حسن نيتها.

وتخضع جميع مراسلات سكان برلين الشرقية الصادرة والواردة لرقابة البريد، ويعيش الأهالي هناك في جو من القلق والكمد، ويتردد الكثيرون منهم على برلين الغربية، كلما أرادوا الترويح عن أنفسهم، والتخلص من ذلك الجو الإرهابي المكفهر الذي يحيط بهم، أو أرادوا التحدث في حرية، أو مطالعة ما يحلو لهم من الكتب والصحف والمجلات في المكتبات العامة.

ولا شك أنهم إذا عادوا بعد ذلك إلى مدينتهم الشرقية شعروا بشيء كثير من الحسرة والمرارة، إذ تتغير الصورة بسرعة فمن نور إلى ظلام، ومن حرية إلى كبت، ومن مرح إلى جد، ومن رخاء إلى تقشف، ومن إسراف إلى حرمان، ومن اختيار إلى إلزام …

ولذلك يؤثر كثيرون منهم البقاء في برلين الغربية مهما كلفهم ذلك من تضحيات.

ولكنك إذا انتقلت إلى برلين الغربية وجدت لونًا آخر من ألوان الحياة؛ وهو لون يتسم بالرجاء والابتسام واللهو والرشاقة.

فقد تعالت المباني العصرية في كل مكان، وأزيلت الأنقاض من كل مكان، وما بقي خاليًا من الأراضي المخصصة للبناء استعمل كمواقف للسيارات الخاصة، وانتشرت السيارات بنسبة عالية جدًّا بين السكان، وكلها من الطراز الجديد.

وانتشرت كذلك الأندية الليلية الراقية التي ينفق فيها البرلينيون والأجانب مبالغ كبيرة في كل ليلة، وظهرت «النعمة» على السكان من رجال ونساء فتميزت ملابسهم بالنظافة والأناقة، وهم يتزاحمون كل ليلة على دور السينما والمسرح والرقص، ويتناولون أطيب المأكولات في المطاعم الكبيرة.

وهكذا ترقص برلين الغربية، وهي لا تعرف ما يخبئه لها القدر في الأشهر أو الأعوام القادمة. إنَّ أهلها لا يفكرون في المستقبل، ولكنهم يعيشون ويريدون التمتع بكل يوم يمر بهم، بعد أنْ قاسوا الحرمان في أعوام الحرب والأعوام التي تلتها مباشرة.

وفي نفس الوقت تستعد الإدارة المسئولة عن المدينة لكل ما يخبئه القدر؛ فهي تختزن الوقود وتختزن مواد الطعام، حتى إذا حوصرت مرة أخرى أمكنها أنْ تتفادى نتائج الحصار.

سألت صديقًا ألمانيًّا من المتشائمين: ولكن لماذا لا تغادر برلين أنت وكل من يخاف من أمثالك؟

وصاح الرجل في شيء من الحدة: كيف أغادرها وهي وطني، وبلدي!

وأخذ الرجل يشرح لي كيف أنَّ عدد سكان برلين قد نقص بعد الحرب بنحو ثلاثة أرباع مليون نسمة، ولكنها مع ذلك لا تزال مقر ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان، يعيش مليون و٢٠٠ ألف نسمة منهم في الشرق، و٢ مليون و٣٠٠ ألف في الغرب.

الجامعة الحرة في برلين، وقد أسست على أكتاف الطلبة الأحرار وبأيديهم.

والحدود القائمة بين برلين الشرقية وبرلين الغربية حدود وهمية لا تتعدى بعض اللافتات المنصوبة هنا وهناك، والتي تقرأ فيها مثلًا:

أنت الآن تغادر برلين الغربية.

أو:

هنا تنتهي حدود المنطقة البريطانية.

كما يقف بعض رجال البوليس على الجانبين لمراقبة الداخلين أو الخارجين من كل منطقة، وسؤالهم في أدب جم عن أوراقهم، أو عن وجهتهم، ولكنهم قلما يعترضون أحدًا.

وقطار «المترو» الذي يسير تحت الأرض في برلين، يدور بين المنطقتين طول النهار وطول الليل، ويمكن لكل من يريد — سواء من سكان المنطقة الشرقية من برلين أم المنطقة الغربية منها — أنْ ينتقل إلى المنطقة الأخرى دون أنْ يعترضه أحد.

ولا شكَ أنَّ أهل المدينة جميعًا — سواء في الشرق أم في الغرب — يتطلعون إلى اليوم الذي تتوحد فيه عاصمتهم، بل وتتوحد فيه بلادهم المنقسمة إلى دولتين، تكاد العلاقات بينهما تكون أشبه بالعلاقات بين بلدين، فرقت بينهما كل أسباب القسمة والخلاف.

والشعب الألماني كله ينظر إلى برلين المنقسمة في حسرة وألم وهو يطالب بها كعاصمة، ويطالب بتوحيدها. وقد ألقى الدكتور هويس رئيس الجمهورية السابق خطابًا في أوائل عام ١٩٥٩، ذكر فيه أنَّ الموضوع الذي يشغل قلب وفكر كل ألماني، ويسيطر على عقله وشعوره وانفعالاته، هذا الموضوع يتلخص في كلمة واحدة هي «برلين».

وطلب الرئيس السابق هويس لمن استمعوا إلى خطابه — وكانوا من رجال السلك السياسي — أنْ ينقلوا للعالم صورة صادقة لشعور الشعب الألماني وإحساساته نحو تلك المشكلة، وهي إحساسات تقوم على أساس الحقوق الطبيعية لكل شعب في الحرية والوحدة وتقرير المصير.

واختتم هويس خطابه بقوله:

> إنَّ كل فرد في ألمانيا يتطلع إلى اليوم الذي تتحرر فيه عاصمة بلاده، وهذه أمنية كل فتاة وشاب وامرأة ورجل وطفل.
>
> إنَّ برلين في عقولنا وأفئدتنا، ولن تبارح ذاكرة أي منا ما لم تتحقق أمنيات شعبنا.

ولا شك أنَّ وضع برلين وتحريرها ليس إلا حلقة من مشكلة أكبر وأهم، هي مشكلة توحيد ألمانيا، وهي المشكلة التي تعلب دورًا هامًّا جدًّا في النزاع الخطير بين الكتلتين الشرقية والغربية، ولا بد من أنْ تعالج علاجًا سريعًا حاسمًا.

ولكن كيف يمكن توحيد الدولتين، بعد أنْ طالت مدة الخلاف، وبعد أن انقضى على نهاية الحرب العالمية الثانية نحو ١٥ عامًا؟

كيف يمكن توحيد الدولتين، وقد اختلفت الأنظمة السياسية في كل منهما اختلافًا تامًّا؟

ومتى يمكن أنْ يتم هذا التوحيد، إذا قدر له أنْ يتم؟
وعلى أي أساس؟
كل هذه أسئلة تحير الساسة، ولا يعرف لها أحد — حتى اليوم — جوابًا!

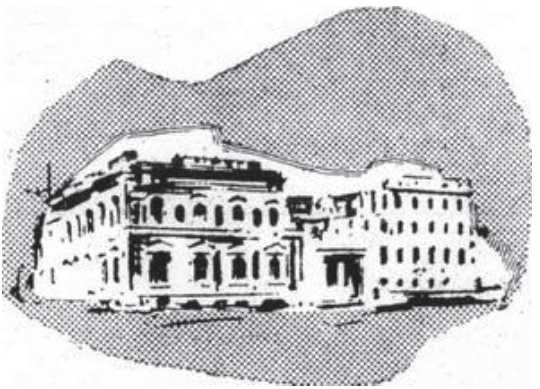

دار المستشارية القديمة في برلين، ومنها كان هتلر يرسم غزواته الأوروبية!

ماذا يقولون؟!

في وسط هذا العالم المنقسم على نفسه، والذي يعيش بين الظلمة والنور، لا يزال سكان شطري برلين يحتفظون بروح السخرية اللاذعة، ويحسون إحساسًا عميقًا بأنهم جميعًا ينتمون إلى مدينة واحدة.

فها هي «جردانيف» (٣٧ سنة)، وهي تجلس في حديقة بيتها ببرلين الغربية، بينما ابنتها التي تبلغ من العمر ثمانية أعوام تلعب بجانبها، إنها تقول عندما سئلت عن رأيها في الحياة ببرلين: «إنك تشعر بأنك سجين كالعصفور في القفص، إنني لا أستطيع أنْ أزور برلين الشرقية، إنني خائفة، وقد أكون مخطئة في هذا الخوف، ولكنني أعرف الشيوعيين، فقد كنت هنا عندما دخلت جيوشهم المدينة!»

إنَّ «فراونيف» — التي يملك زوجها الآن محلًّا صغيرًا لبيع الأجهزة الكهربائية — تحس بالأزمة التي أثرت في معاش الأسرة، وهي تقول: «إنَّ الناس ينتظرون ما تأتي به الأيام، وعندما يكون الإنسان في موقف انتظار يحجم عن الشراء، إنني لا أعلم ما سيحدث، ولكني آمل ألا يتخلى الأصدقاء عن برلين، وأنْ يفوا بوعودهم.»

إنَّ ما تحسه أسرة نيف من أسباب الراحة هو موضع حسد كثير من سكان برلين الشرقية، وبعضهم مثل «روزا نيبل» على استعداد للمجازفة بكل شيء حتى يتذوقوا شيئًا منها، ففي صباح أحد الأيام خرجت امرأة بدينة من مسكنها الشعبي في ضاحية بوتسدام (خارج برلين الغربية)، وركبت قطار المترو الذي يبدأ من خارج برلين، ويعبر برلين الغربية، ثم يعود إلى برلين الشرقية، ولو استطاع موظفو الجمارك الشيوعيون أنْ يعرفوا إلى أين كانت ذاهبة لقبضوا عليها بتهمة الخيانة، ولكن فراو نيبل مثل غيرها من آلاف الألمان، اشترت تذكرة لشرق برلين، وأخبرت الحراس أنها ذاهبة لزيارة أقارب لها هناك،

وفي منتصف الطريق غادرت القطار في هدوء، وهو يخترق برلين الغربية، وهي تعمل الآن خادمة لدى أسرة أجنبية.

ولكن لماذا تجازف فراو نيبل وتعرض نفسها لخطر القبض عليها في نظير مارك ألماني واحد في الساعة، وهو الأجر الذي تتقاضاه نظير عملها كخادمة، ها هي تجيب على هذا السؤال: «في العام الماضي أرسلت لي أختي من ميونيخ زوجًا من الأحذية له كعب عال، ولكنني لم أستعمله فهو ما زال ملقى بالخزانة؛ لأنني لا أستطيع أنْ ألبسه، ففي بوتسدام، حيث أقطن، تصمم الملابس بواسطة المسئولين من رجال كارل ماركس الذي لم يكن يفهم شيئًا في عالم الأزياء!»

«إنني لا أريد أنْ أبتعد عن بوتسدام ولا عن برلين؛ لأنني ولدت وترعرعت فيها، ولا أزال أحبها بالرغم من وجود الشيوعيين فيها، وها أنا ذا اقتصد الماركات الألمانية حتى أستطيع أنْ أشتري ملابس للربيع من برلين الغربية.»

وهناك كثيرون من سكان برلين الشرقية يفضلون أنْ يهاجروا إلى الغرب ليعيشوا هناك، ويبلغ عدد الألمان الشرقيين الذين يهاجرون كل أسبوع حوالي ٣٠٠٠، منهم العلماء وربات البيوت والتجار، وهم ينتقلون سرًّا إلى برلين الغربية، وعندما يدخلون معسكر المهاجرين في مارين فيلد يوجهون جميعًا نفس التهم للبوليس الشيوعي الذي ينشر الجواسيس في كل مكان.

فيقول «جونتر كيوبن» وقد التوى وجهه النحيل ليرسم ابتسامة باهتة على شفتيه:

«إنني أعتقد أنَّ الشيوعيين قبضوا عليَّ كضحية فدائية لثأر خاص.»

ثم يصف كيف دخل رجال الفوبو مسكنه ذات مساء من أيام الصيف الحارة، وكيف أخذ البوليس يستجوبه عدة أسابيع دون أنْ يقول له ما ارتكب من ذنب، وهو يعتقد أنهم اختاروه عفوًا دون عمد، ثم حكموا عليه بالسجن مدة ٢٥ عامًا، وأرسلوه إلى روسيا، ثم اختاروه عفوًا أيضًا، وأعادوه إلى ألمانيا بعد خمس سنوات كأسير من أسرى الحرب، ولم يعرف الرجل لماذا سجن، ولماذا أطلق سراحه؟!

وصل كيوبن إلى ألمانيا الغربية في سنة ١٩٥٦، وهو الآن يعيش في مسكن مكون من غرفتين ومعه زوجته السمراء الجميلة وثلاثة أطفال، وهو يأمل أنْ يستأنف وظيفته الأصلية كمستشار صناعي في ألمانيا الغربية.

ولكن هناك آخرون لم يكن حظهم أسعد من هؤلاء، فها هي «إيفاهوفمان» الأخصائية الاجتماعية (٦٢ سنة) تقول: «إنني أرى بعض اللاجئين، وقد طردوا من بيوتهم يأتون إليَّ

في برلين بملابسهم الممزقة لكي يطلبوا الحرية، ولكن معظمهم لا يجدون أعمالًا هنا، غير أننا إذا قارنا هذه الحال بما كانت عليه برلين سنة ١٩٤٥ فإننا نجد أنَّ المشكلة ما تزال خطيرة، فإنه بالرغم من الحديث عما نسميه معجزة ألمانيا الاقتصادية ما زال عدد العاطلين في برلين كبيرًا إذ يبلغ ٧٪ من الأيدي العاملة.»

وتستطرد «فراويلين هوفمان» قائلة: «كما أنَّ لدينا كثيرات من أنصاف العذارى، فكثيرات من الفتيات اللاجئات تركن أسرهن وهربن إلى برلين وهن وحيدات، وقد يحدث أنْ تقابل إحداهن رجلًا يغرر بها، ومع ذلك فإن نسبة المواليد في برلين أقل منها في أية مدينة كبرى في العالم، إنَّ الناس يخشون نتائج كثرة الأولاد.»

«إنَّ ما نريده نحن في برلين هو السلام! وإذا قامت الحرب فلن يشعر أحد بالأمن لا في فرانكفورت، ولا في نيويورك، ولا في برلين، ومع ذلك فإن عدد الذين يهربون من برلين قد زاد إلى ثلاثة أضعاف في العام الماضي.»

ويقول أحد الخارجين واسمه ولفجانج هرنز: «إنني أكره الانتقال؛ لأنه يشبه الهرب، ولكني لا أريد أنْ أصاب بالإفلاس في سبيل المبدأ، إنَّ عملائي لا يثقون في أحد، وأنت لا تستطيع أنْ تنتظر من الناس أنْ يطلبوا بضائع دون أنْ يضمنوا بشكل من الأشكال أنها ستسلم إليهم.»

وهرتز هذا شاب عمره ٣٦ عامًا، من سكان برلين، وهو يتجر في الملابس الجاهزة والأحذية المصنوعة يدويًّا، وهو يعيش في رخاء في برلين الغربية، وقد استطاع أنْ يصمد إبان حصار برلين الأخير، حيث عاش معتمدًا على البطاطس ومسحوق اللبن، واستطاع أنْ ينجح في عمله التجاري، وهو حياكة ملابس السيدات، ولكن الأزمة مع ذلك أطاحت بثروته.

ولقد هبطت طلبات التصدير في برلين بنسبة ٩٪، ولم يخرج من رءوس الأموال سوى ٢٪، فسارعت بون عاصمة ألمانيا الغربية إلى سد النقص. إنَّ حكومة ألمانيا الغربية تقدم لبرلين إعانة تصل أحيانًا إلى نصف ميزانية المدينة التي تبلغ في مجموعها نحو ٧٠٠ مليون دولار.

ويحاول كثيرون من سكان برلين أنْ يبعدوا عن أذهانهم الأخطار الاقتصادية والحربية.

فتقول بربارا جاهنل (٢١ سنة)، وهي فتاة شقراء جميلة تدرس اللغة الإنجليزية في جامعة فورد المجانية، وثلث طلبتها من برلين الشرقية: «لو نظرت إلى الخريطة ورأيت

صغر حجم برلين لأصابك شعور غريب، إنَّ كل طلبة الجامعة مغرمون بالمسائل السياسية، ولكنهم قلما يتحدثون عن شعورهم بالنسبة للحياة في برلين.»

بل إنَّ كثيرين من الطلبة يشاركون غيرهم من سكان برلين في الترفيه عن أنفسهم واللهو والمتعة، فسباق السيارات يجذب جمهورًا ضخمًا إلى ميدان أفوس للسباق، ويقام سباق الدراجات لمدة ستة أيام في نفس الميدان الذي كان يخطب فيه جوبلز للدعاية للنازي وهتلر. والألمان يقبلون على اليانصيب، كما استؤنفت حياة الليل في سان باولو حيث تعرض الراقصات أجسامهن العارية، وتتنافس مسارح الأوبرا وغيرها في شرق برلين وغربها، وفي برلين الغربية وحدها عشرة صحف، ولذلك فإن الاهتمام كبير بالحياة الفكرية.

وفيما يختص بمستقبل برلين، فإن أهلها لا يختلفون في هذا الشأن.

إنَّ «فراو نيبل» الخادم تقول: «إنَّ أصدقاءنا لن يتخلوا عنا»، ويقول اللاجئ «كبوبين»: «إذا وقف الغرب ثابتًا وكانت عزيمته كاملة، فلن يحدث شيء.»

ولكن فوق هذا كله يجب على سكان برلين أنفسهم أنْ يصمدوا، وها هو عمدة برلين ويلي برانت الاشتراكي المتحمس، الذي يشد أزرهم، ويبث فيهم روح الشجاعة، يعلن أنَّ المشروع الخاص بتحويل برلين إلى «مدينة حرة» سوف يحول برلين إلى مدينة «بدون حرية» إذا لم تجد من يدافع عنها!

إنَّ برانت — سواء كان في سباق الدراجات أو حفلة سياسية — عنيف كجندي يشترك في حرب العصابات، وهو خطيب لبق كأي أديب محترف، ولو أنه يؤمن بالمفاوضات إلا أنه يعلن عداءه لكل من يتنكر للمبادئ.

إنَّ هناك كثيرين جدًّا في كل أنحاء العالم يشدون من أزر العمدة برانت، وهم يعرفون ما يجب عليهم عمله إذا وقع هجوم ضد برلين الغربية، ويداوم جنود الحلفاء السهر والحراسة على الحدود، وهم على استعداد لمواجهة الموقف، إنَّ سيارة البوليس الحربي تقوم بدوريتها يوميًّا بجانب حدود برلين الغربية، وهي ترقب أي بادرة تدل على الخطر وتبعث بالإشارات اللاسلكية إلى الرئاسة باستمرار.

عمليات اختطاف!

من الأعمال التي يقوم بها رجال البوليس السري اختطاف العناصر المعادية للشيوعية في برلين الغربية، وتقدر بعض المصادر عدد من خطفوا حتى الآن بأكثر من ٢٠٠ شخص.

وقد وقع أول حادث خطف من هذا النوع في برلين في نوفمبر سنة ١٩٤٧، وكان ضحيته الصحفي ويترفريد، حيث اعتقلوه وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة.

وقد أثار اختفاء فريد عامئذ عاصفة من الاحتجاجات في البلاد الغربية ضد أعمال الخطف، وفي الفترة الأولى لاختفائه نفى الشيوعيون علمهم بشيء عنه، ولكنهم أعادوه بعد ثماني سنوات في أكتوبر من عام ١٩٥٥، إلى ألمانيا الغربية مع عدد آخر من أسرى الحرب الألمان.

ومن حوادث الخطف الأخرى حادثة خطف الدكتور ولتر ليتر، رئيس القسم الاقتصادي في رابطة المحلفين الأحرار، التي وقعت في يوليو من عام ١٩٥٤، حين هاجمه في رائعة النهار أربعة من الشيوعيين يرتدون الملابس المدنية، ودفعوه إلى سيارة أجرة، أوقفوها أمام منزله في برلين الغربية، ثم «طاروا» بالسيارة بأقصى سرعة إلى برلين الشرقية.

وشهد أحد المارة الحادث فصرخ يطلب النجدة، وسرعان ما بدأت مطاردة السيارة التي تحمل الضحية، ولكن الخاطفين راحوا يطلقون النار على السيارات المطاردة حتى وصلوا إلى الحدود، وهناك رفع الحرس الشرقي الحاجز حتى لا تضطر السيارة إلى الإبطاء من سرعتها، ومكنوها من الاختفاء في منطقة الاحتلال السوفييتية.

ولم يكد الجنرال ليمويل ماتوسون القائد الأمريكي في منطقة برلين، يسمع بالحادث الذي راح ضحيته ذلك المحامي المشهور بدفاعه عن حقوق الإنسان حتى بعث باحتجاج

بوابة براندنبرج، كما تبدو اليوم (في النصف الأعلى من الصورة)، وكما ظهرت عقب نهاية الحرب (في النصف الأسفل)! مَن يصدق!

شديد اللهجة إلى السلطات السوفييتية في برلين، ولكن الاحتجاج لم يلق آذانًا صاغية، ولم يسمع عن الدكتور ليتر أي شيء بعد ذلك.

وفي ليلة ١٣ أبريل سنة ١٩٥٤ هاجم الشيوعيون الدكتور ألكسندر تروشنوفيتش، الطبيب ورئيس ومؤسس لجنة الإنقاذ «الروسية» في برلين الغربية، هاجموه في المنطقة البريطانية من برلين، وضربوه ضربًا مبرحًا ثم خطفوه، وأسفر التحقيق الذي أجراه

بوليس برلين الغربية عن أنَّ الدكتور تروشنوفيتش كان ضحية خيانة واسعة النطاق تزعمها هايتز جليسكا، وهو شيوعي كان يتظاهر بأنه من أعداء الشيوعيين، وتبين كذلك أنَّ أمر الخطف صدر من جانب السلطات العليا، وأنَّ الغرض منه انتزاع «اعتراف» كاذب من الدكتور تروشنوفيتش؛ للانتفاع به في حملة واسعة النطاق ضد المهاجرين الروس.

وكان مصير الدكتور تروشنوفيتش كمصير الدكتور ليتر، فلم يسمع عنه شيء بعد ذلك، ولم يكن هناك أثر للاحتجاجات التي قدمتها السلطات البريطانية والأمريكية ومسز تروشنوفيتش وغيرها من الأفراد والمؤسسات، وفي شهر يوليو من ١٩٥٤ أثارت لجنة مكافحة الخطف المسألة في الأمم المتحدة مؤيدة بمئات العرائض.

لقد كان الدكتور تروشنوفيتش يوم خطفه في الحادية والستين من عمره، وهو سلوفيني المولد، روسي الجنسية، اشتهر منذ سنة ١٩١٧ بمقاومته للدكتاتورية الشيوعية، وأصبحت لجنة الإنقاذ التي أسسها في سنة ١٩٥٠ رمزًا للحرية وملاذًا لألوف اللاجئين الفارين من الشيوعية، وكان اسمه في تلك الآونة رمزًا للبسالة والأمل وراء الستار الحديدي.

وفي أبريل من عام ١٩٥٥ خطف صحفي ألماني اسمه كارل فريك، ونقل من برلين الغربية إلى الشرقية، وأظهر التحقيق الذي أجراه بوليس ألمانيا الغربية أنَّ فريك خطف بعد أنْ خُدر بقطعة من الحلوى، وأنَّ عملية الخطف تمت بمساعدة عميل شيوعي فرَّ إلى برلين الشرقية هو كيرت ريتواجن.

وفريك المخطوف كان في التاسعة والعشرين من عمره يوم خطف، وهو لاجئ من ألمانيا الشرقية، التحق بجامعة وليهلشافن في ألمانيا الغربية، وفي سنة ١٩٥٢ تلقى نبأ يفيد بأن والده قد أعدم في أحد معسكرات الاعتقال في ألمانيا الشرقية، فترك الجامعة فورًا، وبدأ نشاطه الفعلي ضد الشيوعية بكتابة المقالات في الصحف.

وفي أوائل أغسطس من عام ١٩٥٥ خطف الماجور سيلفستر ماراو الذي فرَّ من بوليس ألمانيا الشرقية ولجأ إلى برلين الغربية، وقد خطفه اثنان من العملاء في المنطقة الأمريكية من برلين.

وفي ٦ فبراير عام ١٩٥٦ خطف رجال البوليس الشيوعي السري روبرت بيالك في المنطقة البريطانية، وكان بيالك هذا مفتشًا عامًا للبوليس في ألمانيا الشرقية، ثم فر إلى برلين الغربية في عام ١٩٥٣ وراح يفضح أساليب الحكم الشيوعي في ألمانيا الشرقية عن طريق الصحف والإذاعة، وقد جاء في التحقيق أنه خطف أثناء حفلة عيد ميلاد أقامها زميل له من رجال البوليس اللاجئين هو بول دروزويكي، وقد تبين أنْ أُصِيب بإغماء أثناء الحفلة

فحمله اثنان من «الأصدقاء» في سيارة بحجة نقله إلى المستشفى، وكان ذلك آخر ما عُرِف عنه.

وفي الأسبوع نفسه احتجت السلطات الأمريكية في برلين على محاولة خطف أربعة آخرين من الألمان من المنطقة الأمريكية، وجاء في مذكرة الاحتجاج أنَّ رجال بوليس ألمانيا الشرقية حاولوا خطف الرجل وابنتيه وزوجة شقيقه، ولكن المحاولة فشلت، فقد قاوم الرجل الجناة بينما راحت أخته وكريمتاه تصرخان في طلب النجدة.

وفي ٢٢ أغسطس عام ١٩٥٨ أعلن رجال البوليس في برلين الغربية أنَّ الدكتور إيروين ثيومان، مدير رابطة المحلفين الأحرار، لم يعد من نزهة بحرية قام بها في نهر هافل، وأنَّ من المعتقد أنه راح ضحية لحادث من حوادث الخطف.

رمز القوميَّة الألمانيَّة

يقول الوزير الألماني أرنست لجر:

تمتاز برلين العاصمة القديمة للرايخ الألماني على أية مدينة ألمانية أخرى، بأنها تعكس صورة لمصير ألمانيا منذ الحرب، ففي عام ١٩٤٥ بعد الهزيمة الساحقة التي لحقت بالاشتراكية الوطنية رغم المقاومة التي أبدتها، وبعد أن احتلها السوفييت، خضعت المدينة لإدارة الدول الأربع، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا، وقسمت — كما قسمت ألمانيا نفسها — إلى المنطقة الغربية والمنطقة الشرقية، وأصبحت برلين بالنسبة لكل ألماني الرمز القومي للتقسيم الظالم الذي حل بأرض الآباء، ذلك الرمز الذي يذكر الألماني دائمًا بأن يعمل في سبيل توحيد ألمانيا.

وكل ألماني مقتنع بأن هذا الاتحاد سيصبح يومًا ما حقيقة مؤكدة داخل برلين نفسها، وذلك هو السبب في أنَّ الموقف السوفييتي الأخير بالنسبة للدول الأخرى في برلين، والذي هدد فترة بانفجار الموقف داخل العاصمة الألمانية؛ هذا العدوان أثار مشاعر الشعب الألماني بأسره في جميع أنحاء ألمانيا، ولم يجد الاقتراح السوفييتي الخاص بتحويل برلين الغربية إلى مدينة حرة أي صدى، لا عند الألمان الذين يعيشون في الجمهورية الاتحادية، ولا عند الذين يسكنون المنطقة الشرقية، يستثنى من ذلك الموظفون الشيوعيون الذين يحرصون على مناصبهم.

إننا نعلم جميعًا أنه بمجرد زوال مسئولية الدول الأربع عن برلين، فإن آخر الأوضاع السياسية التي تهدف إلى إيجاد فرصة للوحدة سوف تنمحي إلى الأبد، فلقد علمتنا الخبرة الطويلة التي حصلنا عليها في برلين، وفي ألمانيا الوسطى أنَّ مقترحات السوفييت الخاصة بتحويل برلين إلى مدينة «حرة» لا بد أنْ تكون خطوة أولى، وأنَّ إدماج برلين كلها في منطقة نفوذ الجمهورية الديمقراطية الألمانية سيكون الخطوة التالية، ولقد اعترف الموظفون في المنطقة الشرقية صراحة بهذه المطامع، كما تحقق سكان برلين من أنَّ المقترحات السوفييتية قد تشمل في الظاهر بعض المزايا؛ لكي تسدل ستارًا على عيون أولئك الذين لم تسنح لهم فرصة التعرف على «التكتيك» السوفييتي عن كثب، ولذلك أصبح من الضروري أنْ يبحث العالم في المصير الذي ينتظر برلين لو قدر — مثلًا — أن اعتمدت الصناعة في برلين وموارد الغذاء فيها على النظام الشيوعي، سيؤدي هذا إلى إهدار الحقوق السياسية والاقتصادية بدرجة لا تستطيع قوة أنْ تمنعها، فسكان برلين لا يمكن خداعهم حتى ولو منحوا مؤقتًا الاستقلال السياسي، والحق في تقرير المصير، وفي الدخول إلى برلين والخروج منها دون قيد.

وهم يذكرون جيدًا ما حدث بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨، فقد كانت نتيجة أول انتخابات حرة في برلين يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦: ٢٦ مقعدًا للشيوعيين من بين ١٣٠ مقعدًا في برلمان المدينة، وقد حدث هذا مباشرة بعد محاولة سوفييتية فاشلة لإدماج الحزب الديمقراطي الاشتراكي والحزب الشيوعي في برلين، وكان رد السوفييت على هذا التحدي السافر الذي تقدم به الناخبون في برلين لحزب الوحدة الاشتراكي، هو اعتراض (فيتو) ضد انتخاب البروفسور أرنست رويتر، عضو الحزب الديمقراطي الاشتراكي، كعمدة لبرلين الغربية.

وفي خلال الأشهر التالية قيد السوفييت أعمال الحكومة التي انتخبها السكان، كما قيدوا إدارتها بينما زادت حدة النزاع بين الحلفاء والاتحاد السوفييتي.

ووصل النزاع إلى ذروته عندما بدأ السوفييت حصار ألمانيا الغربية في يونيو سنة ١٩٤٨، وكان هذا التصرف يشمل أول محاولة لإجبار الدول الغربية على ترك برلين، ولكن المجهودات المتناسقة للشعوب الغربية وشعب ألمانيا الغربية هزمت الحصار بعد فترة دامت ١٢ شهرًا، وفي أثناء الحصار أدت المضايقات

السوفييتية المنظمة إلى سقوط الحكومة المنتخبة لبرلين الغربية. وفي ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٨ فض عدد من الغوغاء الشيوعيين اجتماعًا للمجلس البلدي، كان الهدف منه التداول في المشاكل السياسية والاقتصادية لإصلاح العملة. وفي أغسطس سنة ١٩٤٨ أعلن الشيوعيون أنَّ القضاء المنتخب لا يتمتع بثقة شعب برلين. وفي ٦ سبتمبر فض الغوغاء اجتماعًا آخر لحكومة المدينة عقد في القطاع السوفييتي، ولم يحاول رجال البوليس في القطاع السوفييتي حماية المندوبين الذين انتخبوا انتخابًا حرًّا.

ولذلك قرر الديمقراطيون الاشتراكيون والاتحاد الديمقراطي المسيحي والحزب الديمقراطي الحر أنْ يعقدوا اجتماعاتهم في برلين الغربية، وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٨ عقد الشيوعيون في برلين الشرقية — دون أي تفويض — اجتماعًا غير عادي لأعضاء الحكومة البلدية، وقرروا طرد المجلس المنتخب، وتعيين مجلس جديد كل أعضائه من الشيوعيين.

وبالرغم من هذا التصرف من جانب الشيوعيين والذي تم بدعاية كبيرة وعلى أساس القوة المادية أيضًا، فإن مجلس بلدي برلين برئاسة العمدة الحاكم دكتور فرد فرادنزبرج بقي في مكانه في القطاع السوفييتي من برلين أثناء أزمة الحصار مقاومًا الهجوم الموحد للسوفييت وحزب الاتحاد السوفييتي، وبالرغم من الخطر الذي كان يهدد أعضاء هذا المجلس شخصيًّا، فإن غرضهم من البقاء كان أنْ يظهروا للعالم من المسئول عن تقسيم برلين.

ولقد أيد هذا التصرف تأييدًا واضحًا ما قام به قومندان البوليس في القطاع السوفييتي يوم أول ديسمبر سنة ١٩٤٨ في الساعة الثامنة والربع صباحًا، حينما منع بالقوة عمدة برلين من الدخول إلى مكتبه في قاعة البلدية، وقد تم هذا التصرف تنفيذًا لأوامر السوفييت، وبذلك فرض التقسيم الإداري للمدينة على سكان برلين فرضًا وضد إرادتهم، وهو تقسيم لم يستطع أحد مقاومته حتى بعد انتهاء الحصار في مايو سنة ١٩٤٩.

ولم ينسَ ساكن برلين هذا العمل، فلقد اقتنع كل فرد أنَّ أية مدينة ألمانية «حرة» سوف تكون في وضع مشابه للوضع الذي مرت به برلين في سنة ١٩٤٨، إذا رفض سكانها أنْ يخضعوا للمطالب الشيوعية.

ولذلك فإن أي استفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة لحل مشكلة برلين يجب أنْ يدور حول أحد الأوضاع الآتية:

- وحدة كل برلين مع الجمهورية الديمقراطية الألمانية.
- وحدة كل برلين مع الجمهورية الاتحادية الألمانية.
- إنشاء مدينة حرة لكل برلين تحت إشراف الأمم المتحدة.

وشعب برلين الغربية يعلن عن رغباته في كل وقت، فهو يريد أنْ يحتفظ بحريته واستقلاله في الاتفاقية القائمة، وهذه الاتفاقية يجوز تعديلها بناء على اتفاق مشترك بين الجميع، وليس من جانب واحد.

أجراس الحريَّة

عندما شن الاتحاد السوفييتي في أوائل نوفمبر من ١٩٥٨ هجومه الأول على موقف برلين الغربية، تنبأ أندريه سميرنوف، سفير موسكو في الجمهورية الألمانية الاتحادية بأن الألمان وسكان برلين سيعيشون في سلام مقيم، لقد تحققت نبوءة سميرنوف ولو أنها لا ترضي رجال الكرملين؛ ذلك لأن شعب برلين ذلك الشعب الذي يحتفظ بهدوء أعصابه التي يضرب بها المثل، يعتقد أنَّ برلين يمكنها الاعتماد على حماية العالم الحر.

وربما يبدو لأول وهلة أنَّ هذا الكلام متناقض؛ لأن حرية برلين الغربية لم تتعرض في يوم واحد لخطر أعظم من الخطر الذي تتعرض له اليوم، فاليوم يؤمن كل برليني، أينما كان سواء كان يسير في شوارع العاصمة، أو يركب القطار الذي يسير تحت الأرض، أو يشرب البيرة التقليدية في الحانة الواقعة عند منعطف الطريق، أو يشهد احتفالًا رسميًّا، يؤمن أنَّ الضمانات التي تقدمها الدول للمحافظة على سلامة المدينة ضد اعتداء الشيوعيين لا يمكن أنْ تكون كلمات جوفاء.

وكان أشد أثرًا من هذه التصريحات السياسية وأكثر تشجيعًا ما قامت به بعض المؤسسات الصناعية الكبرى من أعمال تدل على حقيقة شعورها، ففي نفس الوقت الذي نشرت فيه المذكرة السوفييتية الخاصة ببرلين افتتح فندق هلتون الجديد بصالاته وحجراته الفخمة ومطاعمه، وهو يعد أعظم وأحدث فندق في ألمانيا، ولقد لاحظ أهالي برلين في فخر كيف أنَّ هذا الفندق قد بني في مدينتهم وأنَّ كونراد هلتون حضر بنفسه حفل الافتتاح وبصحبته عدد كبير من موظفيه طاروا من نيويورك خصيصًا لهذا الغرض.

كما أنَّ كثيرين من رجال الصناعة في الجمهورية الاتحادية وغيرها من الدول حضروا لزيارة هذه المدينة بقصد تقديم مقترحات جديدة لإصلاح الاقتصاد، وأخيرًا وليس آخرًا

«ستالين آليه» أو شارع ستالين، هو أهم شارع في برلين الشرقية، ففيه أكبر المحال التجارية، وأضخم العمائر التي تشبه عمائر موسكو.

أعلنت الحكومة الاتحادية في ١٩ ديسمبر الماضي أنها بسبيل إعداد برنامج إضافي لمشروع الإنعاش الأوروبي، وقد رصدت أموال هذا البرنامج للمشروعات الإنتاجية، وخلق وظائف جديدة للعمل، ولنقل عدد من مشروعات ألمانيا الغربية إلى برلين.

ولقد كانت كل هذه الإجراءات دافعًا لسكان برلين على الإحساس بالأمن والطمأنينة، فلم تخطر بذهن أحدهم فكرة تخزين سلعة ما خوفًا من عواقب حصار جديد، كما أعلنت وكالات شركات السياحة أنَّ عددًا كبيرًا من الألمان، قد حجزوا أماكنهم للقيام برحلات صيفية إلى إيطاليا وجبال الألب وبحر الشمال وغيرها من المراكز السياحية.

وكان السوفييت قد أعلنوا أنَّ انتخابات برلمان برلين الغربية التي حدد لإجرائها يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٥٨ يجب أنْ تعتبر بمثابة استفتاء على اقتراح خروشوف الخاص باعتبار برلين مدينة «حرة»، ولكن إذا بهم يعلنون فجأة تغيير موقفهم بعد أنْ ظهر أنَّ الشيوعيين قد حصلوا على ١,٥ في المائة فقط من عدد الأصوات في برلين الغربية، ثم عادوا بعد ذلك

فأعلنوا أنَّ ناخبي برلين الغربية لم يستطيعوا فهم نصوص المذكرة السوفييتية في هذا الوقت القصير، ولذلك فإن الانتخابات التي تمت لا يمكن أنْ تعتبر بمثابة استفتاء!

إنَّ وجهة النظر السائدة في برلين الغربية، هي أنَّ الشيوعيين يجب أنْ يتمسكوا بوعدهم، وأنه يجب إجراء استفتاء عام يشمل برلين كلها، وبالرغم من أنَّ هناك عقيدة بأن الشيوعيين سيعترضون على هذا الاقتراح خوفًا من هزيمة جديدة، فإن القطاع الغربي يتساءل عن الطريقة التي سيتجنب بها حزب الاتحاد الاشتراكي الشيوعي هذه الهزيمة، لا شك أنَّ الحزب سيلجأ إلى أساليب جديدة من الدعاية التي اشتهر بها!

إنَّ المتجول في أنحاء برلين الشرقية يحس بهذه الدعاية في كل مكان، فهناك لافتة كبيرة تقول:

لقد سئمنا الأمريكان والجواسيس، إنَّ برلين ستبقى مدينة حرة.

وهناك لافتة أخرى بأنوار النيون كتب عليها:

من أجل السلام والاشتراكية والرخاء.

ومع هذا فإن الأسعار في برلين الشرقية لا تؤيد هذه الشعارات، فإن ثمة الرطل من فاكهة الأناناس يكلف المشتري ٦ ماركات شرقية، وهو ما يعادل أجر ثلاث ساعات من العمل، بينما يبلغ ثمن الرطل من البرتقال ٢ مارك شرقي، ويتقاضى محل الملابس الذي تديره الدولة ٨٢ ماركًا شرقيًّا ثمن زوج من القفازات المبطنة بصوف الغنم، وهكذا الحال في سائر البضائع التي لا تصل إلى متناول يد العامل نظرًا لارتفاع سعرها.

أما فيما يتعلق «بالرخاء الاجتماعي»، فليس هناك أدنى صعوبة في معرفة أي قطاع من الاثنين يشعر بالطمأنينة والثقة أكثر من الآخر.

إنَّ الموظفين في برلين الشرقية قد أصيبوا بشيء من توتر الأعصاب، وهم يشهدون ويلمسون الاستقرار والثبات في برلين الغربية، وهم ما زالوا يطالبون «ببذل مجهودات جديدة لتحقيق مشروعاتنا الاقتصادية»، ويفخرون «بتقدم ظافر» للاشتراكية في سنة ١٩٥٩، ولكن شعب برلين الشرقية كله ينتظر أنْ يسمع جرس الحرية عندما يدق في صالة البلدية ببرلين الحرة، فإن صدى أجراس الحرية يومئذ سوف يتردد في جميع أنحاء ألمانيا؛ ليحمل إلى أهلها بشائر الحرية والوحدة.

لماذا يعارضون الجلاء؟

في ٢٧ نوفمبر من عام ١٩٥٦ قدم خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي مذكرته المشهورة، التي طالب فيها أمريكا وبريطانيا وفرنسا بسحب قواتها من برلين، وبذلك — كما ذكر في مذكرته — تنتهي بقايا عهد الاحتلال في ألمانيا. وهنا يتساءل كثير من الناس: لماذا يعارض الألمان في خروج قوات الاحتلال؟

والإجابة على هذا السؤال بسيطة: فإن الألمان قد وطدوا العزم على معارضة هذا القرار؛ لأنه لا يمكن أنْ يعني انتهاء عهد الاحتلال في برلين، بل على العكس إنَّ معناه أنَّ برلين الغربية — أي ذلك الجزء من المدينة الذي بقي حرًّا — سيخضع للحكم الشيوعي، كما تخضع له برلين الشرقية وجميع المنطقة الشرقية.

إنَّ نظرة بسيطة للخريطة تكفي لأن تزيد الأمر وضوحًا، فبرلين تقع في وسط جزء من ألمانيا يحكمه الشيوعيون، وتحيط بها من جميع الجهات فرق سوفييتية مجهزة بالأسلحة الثقيلة والأسلحة الذرية، والجلاء معناه انسحاب فرق الدول الغربية مائة ميل نحو الغرب داخل الجمهورية الاتحادية الألمانية، بينما يسحب السوفييت قواتهم ستة أميال فقط خارج حدود مدينة برلين، وبذلك يكون واضحًا أنَّ برلين الغربية ستصبح بلا حول ولا قوة أمام الضغط السوفييتي.

واليوم تنقسم برلين إلى قسمين مختلفين: ففي برلين الغربية تسود الحرية، وللشعب برلمان منتخب، ولها مجلس بلدي ومحافظ وإدارة تخضع لحكم القانون، ومحاكم مستقلة، وعندما أعلنت نتيجة انتخابات المجلس البلدي في ٢٧ ديسمبر من عام ١٩٥٨ لم يفز الحزب الشيوعي بمقعد واحد، ولم يحصل إلا على اثنين في المائة من مجموع الأصوات.

وعلى العكس من ذلك نجد برلين الشرقية خاضعة للحكم الشيوعي، ولم تجر فيها انتخابات، ويشغل الوظائف الرئيسية فيها موظفون انتخبهم ووافق عليهم الشيوعيون

بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهم يحكمون مستندين إلى القوة والرقابة «والعدالة» الاستبدادية والبوليس السري، وبالاختصار على القوة العسكرية.

وما يريده السوفييت هو أنْ تخضع برلين الغربية لنفس النظام السائد في الشرق، وفعلًا حاولوا ذلك في عام ١٩٤٨ عندما حاصروا مدينة برلين، ولم يتم إنقاذ المدينة إلا بمساعدة الدول الغربية وشعب ألمانيا الغربية، والعمليات التي قام بها السلاح الجوي في المحافظة على برلين وإطعام أهلها.

ويعلم سكان برلين حق العلم أنَّ القوات الغربية والتابعة لألمانيا الغربية هي حماهم الوحيد وأفرادها أصدقاؤهم وحلفاؤهم، ولذلك لا يريد سكان برلين منهم أنْ ينسحبوا، بل إنهم يطالبون ببقائهم، وبزيادة قوتهم.

أما بالنسبة للألمان في المنطقة الشرقية أيضًا فإن برلين هي محط آمالهم من أجل الحرية، وميناء سلامتهم وملجؤهم الأخير، ففي كل أسبوع يهرب الآلاف إلى الغرب حتى بلغ مجموعهم عدة ملايين خلال العشر سنوات الأخيرة، إنهم لا يستطيعون تحمل الحياة والاضطهاد في ظل النظام السائد هناك.

ولكل هذه الأسباب يطالب الشيوعيون بانسحاب القوات من برلين، فإنها لا تدافع عن حرية سكان برلين الغربية فحسب، بل تحافظ أيضًا على اتصالات المدينة بالجمهورية الاتحادية، فإذا قدر لهذه القوات أنْ تنسحب فسيكون باستطاعة الشيوعيون أنْ يخنقوا المدينة اقتصاديًّا في أي وقت.

ولما كانت برلين الغربية بمثابة جزيرة فإنها لا تستطيع البقاء دون أنْ تتبادل السلع مع الغرب علاوة على أنها تعتمد على المساعدة الاقتصادية التي تقدمها حكومة بون، ولذلك فبعد انسحاب القوات الغربية لن يكون الشيوعيون في حاجة إلى أنْ يدخلوا المدينة، بل عليهم فقط أنْ يعوقوا أو يعترضوا طرق المواصلات مع الغرب، فتضطر المدينة فورًا إلى الخضوع لأوامر السوفييت، ويعلم جميع الألمان سواء كانوا في برلين، أو في الجمهورية الاتحادية، أو في المنطقة الشرقية هذه النوايا جيدًا، وهذا هو السبب في أنهم يريدون بكل ما فيهم من عزم الإبقاء على صلاتهم بالغرب بأي وسيلة من الوسائل.

برلين لا تتبع الشرق

إنَّ برلين لا تقف وحدها، وهناك وحدات مكونة من قوات الحلفاء لحماية حريتها، ومن المؤكد أنَّ هذه القوات لا تعتبر جيشًا إذا قورنت بالفرق السوفييتية الموجودة بالشرق، ولم يعلن الشيوعيون يومًا بأنهم يشعرون بتهديد هذه الوحدات لهم، ولكنها تقف في طريق خططهم؛ نظرًا لأنها تمنعهم من الاستيلاء على برلين، وهذا هو السبب في مطالبتهم بضرورة انسحابها.

ووجود وحدات من الدول الغربية في برلين يستند إلى حقوق واضحة المعالم، وفي نفس الوقت تحمي هذه الوحدات حرية الاتصال بالجمهورية الاتحادية، وهي مواصلات تمتد مائة ميل عبر المنطقة السوفييتية، والحقيقة أنَّ هذه الحقوق التي بدأت عقب الحرب لا صلة لها مطلقًا بحكومة الاتحاد السوفييتي، وهذه الحكومة لا تملك التنازل عن هذه الحقوق لطرف ثالث، أو لأية حكومة أخرى في المنطقة.

وعلاوة على هذا كله اعترف السوفييت بهذه الحقوق في اتفاقيات الدول الأربع الموقعة في ١٢ سبتمبر و١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤، وفي إعلان ٥ يونيو سنة ١٩٤٥، وفي اتفاقية انتهاء حصار برلين بتاريخ ١٢ مايو ١٩٤٦، وما يهم سكان برلين اليوم هو بقاء وحدات الدول الغربية، فإنهم يشعرون أنَّ هؤلاء الجنود الأصدقاء والحلفاء هم درعهم الوحيد.

وقد حاول الاتحاد السوفييتي أنْ ينقض هذه الالتزامات، وطالب بسحب الوحدات، وعرض عقد اتفاقية جديدة مع الدول الأربع، وأخذ يهدد بتمزيق الاتفاقيات القائمة الخاصة ببرلين، بينما لا يزال الغرب يحتفظ بوحداته هناك، فكيف يمكن ضمان احترام أية اتفاقية أخرى بعد انسحاب هذه الوحدات؟

جزء من «الكورفورستندام» الشارع الأنيق في برلين الغربية، وقد ظهرت فيه كنيسة القيصر، ولهلم التي تقرر الإبقاء على الجزء المتهدم منها تذكارًا لويلات الحرب.

إنَّ العالم كله يتطلع إلى برلين ويؤيدها، فهي موضع عطف الأصدقاء الطيبين في أنحاء كثيرة من العالم.

ولكن هناك مع ذلك شعور بالقلق حول مصير هذه المدينة.

فلقد تعرضت لسيل من الدعاية الجارفة يتدفق من شيوعيي ألمانيا الشرقية، ومع ذلك فإن هذا السيل من الدعاية وهذا التهديد، لم يؤثرا في روحها المعنوية إذ سبق أنْ تعرضت لأكثر منهما وأشد.

وقد كان الهدف الأول لجماعة أولبريشت سكرتير الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية، هو زعزعة ثقة الألمان في الاستقرار الاقتصادي، ونشر الشعور بعدم الأمن، وعرقلة إعادة بناء برلين الحرة. وهذا الهدف مصيره الفشل لا محالة بفضل الصداقة القائمة بين برلين وبين الذين أنقذوها بالفعل من عواقب الحصار السابق، الذي فرض عليها بواسطة الجسر الذي أقاموه فوق برلين؛ أولئك الذين قرروا الوقوف إلى جانبها بالرغم من كل ما يترتب على وقوفهم من أخطار ومشاكل.

وقد أعلن الرأي العام في العالم كله تأييده لمدينة برلين، وهو ما تقدره المدينة وتحمل له أعظم الجميل، وقد برزت مسألة برلين لتحتل مكان الصدارة بين مشاكل العالم الأخرى عقب الخطابين اللذين ألقاهما الرئيس السوفييتي نيكيتا خروشوف، وسلك فيهما نفس السبيل الذي سلكه البروفسور كروبر في أوائل سنة ١٩٥٨، وتلقفه منه أولبريشت بعد ذلك، فقد قال: إنَّ برلين كانت جزءًا لا يتجزأ من منطقة الاحتلال السوفييتية منذ نهاية الحرب العالمية، وأنها لذلك تتبع ألمانيا الشرقية، بل إنها عاصمتها.

ولا بدَّ لنا أنْ نذكر أنَّ خروشوف لم يعد بأن يتخلى الاتحاد السوفييتي عن حقوقه فيما يختص ببرلين؛ بل إنه اعترف بحق الدول الغربية في البقاء في برلين وممارسة سيادتها فيها، وفي أوائل سنة ١٩٤٨ وعقب «فركشة» مجلس الرقابة وفصل العملة، تقدمت حكومة موسكو بزعامة ستالين بمزاعم ومطالب مماثلة، ولم يكن الرد على هذه المزاعم والمطالب من اختصاص عمدة برلين، بل كان من اختصاص الدول صاحبة الشأن.

وهناك بالنسبة للوضع في برلين بألمانيا المقسمة، سلسلة من الاتفاقيات الدولية تعتبر خطأ جزءًا من اتفاقية بوتسدام، وأهم هذه الاتفاقيات المعقودة بين الدول الغربية والاتحاد السوفييتي، اتفاقية لندن الموقعة في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٤، والاتفاقية التي عدلتها في ٥ يونيو سنة ١٩٤٥، فلقد نص صراحة في اتفاقية لندن على أنَّ منطقة برلين ستكون موضع احتلال مشترك من جانب الدول الأربع، وفضلًا عن ذلك فقد اتفق على أنْ تحتل قوات الاتحاد السوفييتي المنطقة الشرقية باستثناء منطقة برلين التي اتفق على أنْ تخضع لنظام خاص للاحتلال.

وتلت ذلك كله الاتفاقيات التي وقعت في شهر مايو من عام ١٩٤٩ لإنهاء الحصار المفروض على برلين الغربية، والتي أعقبتها القرارات التي اتخذها مؤتمر وزراء الخارجية الذي عقد في باريس في صيف ١٩٤٩، والذي ركز مهمته في إعادة حركة المرور إلى برلين.

فالمعاهدات المذكورة هنا هي الأساس الذي يقوم عليه النظام الديمقراطي الحر في برلين الغربية، وهي الأساس الذي تبقى هذه المدينة بموجبه تحت سلطة الدول المتحالفة، وهي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الحر الذي حقق الكثير من الفوائد للشعب في ظل برلمان المدينة الذي انتخب بحرية، وفي ظل حكومة مسئولة أمام ممثلي الأمة، ولا يستطيع أحد أنْ يخلي نفسه من مسئوليات المعاهدات والاتفاقيات الدولية دون أنْ يخرق القانون، وعلى أولئك الذين يظنون أنهم قادرون على تجاهل الحقوق أنْ يدخلوا في حسابهم ما يترتب على ذلك من آثار خطيرة.

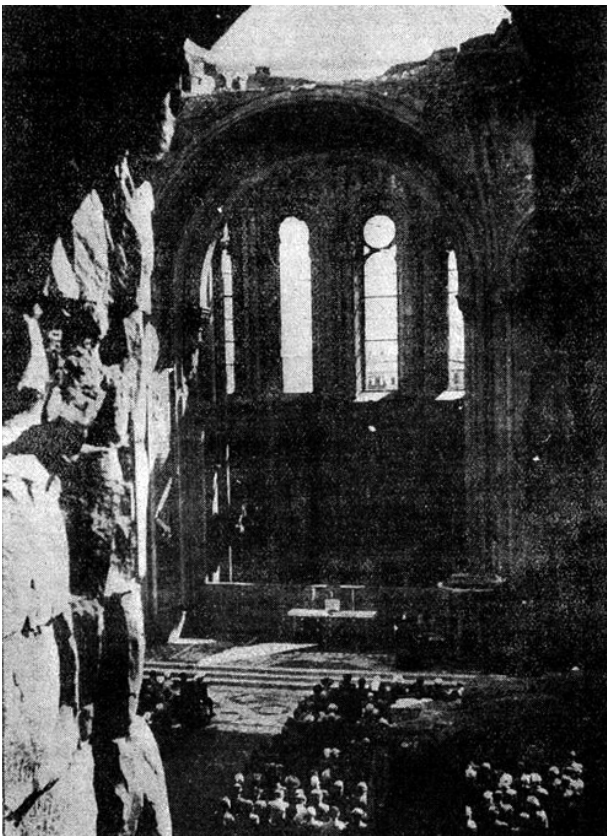

رغم التخريب الذي خلفته الحرب في كنيسة قيصر ولهلم ببرلين، فإن البرلينيين يحبون أنْ يصلوا فيها ليتذكروا ويلات الحرب!

وثمة عامل هام آخر فيما يختص بالموقف القانوني والفعلي، وهو البيانات الخاصة بأمن برلين، ولا سيما تصريح ٣ أكتوبر سنة ١٩٥٤، وهو التصريح الذي أعلنت فيه الدول الثلاث أنها تعتبر أمن برلين وسلامتها ورفاهية سكانها، والمحافظة على وضعها الراهن من الأمور الأساسية للسلام، فقد تضمن التصريح المذكور أنَّ الدول المتحالفة سوف تحتفظ

يلتقي كل عام بمعارض برلين الملايين من الزوار الأجانب والألمان الذين يفدون من الشرق، وترى في هذه الصورة الجبهة الأمامية لأرض المعرض، وقد ظهر بها برج راديو برلين.

بقواتها المسلحة في منطقة برلين ما دامت مسئوليتها تتطلب ذلك، وستعتبر أي هجوم على برلين — أيًّا كان مصدره — هجومًا على قواتها وعليها نفسها.

المقبرة الروسية في القطاع الغربي، وهي تقع على مقربة من بوابة براندنبرج ويحرسها جنود من الروس.

هذا التصريح ما زال قائمًا، ويبدو أنَّ أولبريشت كان في حاجة إلى توتر جديد في الموقف بقصد تحويل الأنظار عن إفلاس سياسته في المنطقة الشيوعية، وهو الإفلاس الذي يتجلى في تدفق سيل اللاجئين الدائم إلى الغرب، رغم ما يبذله من محاولات لكي يمنعه، بنشر الخوف والرعب في النفوس. ولن تتمكن قوة على ظهر الأرض من أنْ تحول دون الاتصال بين سكان ألمانيا المقسمة، ودون أنْ يعملوا على أساس أنَّ برلين تضم شعبًا واحدًا بالرغم من الحدود التعسفية التي تحاول أنْ تفصل بينهم.

إنَّ حل المشكلة الألمانية لن يحقق للشعب الألماني مطلبًا قانونيًّا مشروعًا من مطالبه فحسب؛ بل سيكون في مصلحة جميع أولئك الذين يتمنون الاستقرار لأوروبا والسلام للعالم، وإذا كان الوصول إلى هذا الحل يستغرق بعض الوقت فلا أقل من أنْ تترك خطوط التموين الممتدة إلى برلين حرة من التعقيد حتى تخف حدة التوتر بدلًا من أنْ تزيد.

إنَّ هناك ثلاثة ملايين ونصف مليون برليني من بينهم مليونان وربع مليون برليني غربي، لا يطلبون أكثر من مجرد الحياة في حرية وإتمام أعمالهم الإنشائية بسلام، إنهم لا يملكون سلاحًا، ولكنهم يملكون حقًّا في الحياة، وأعصابًا قوية، وهم يتمسكون بأن برلين لم تكن أبدًا تابعة لألمانيا الشرقية، وهي لا تتبعها الآن ولن تكون تابعة لها في المستقبل.

ماذا يُريدون منَّا؟

يقول الدكتور كونراد اديناور، مستشار ألمانيا الغربية في مقال له:

يقيم في برلين أكثر من مليونين من السكان لا يريدون أنْ تكون لهم أية علاقة بالشيوعية، هؤلاء هم سكان برلين الغربية، أما الجزء الشرقي من المدينة مضافًا إليه المنطقة التي تحيط ببرلين فيسيطر عليهما الجيش الأحمر، وقد حاول السوفييت مرتين إدخال برلين الغربية داخل نطاق الحكم الشرقي في ألمانيا الوسطى، ولكن السكان أظهروا بوضوح مرتين في الانتخابات أنهم غير مستعدين إطلاقًا لأن يتخلوا عن حق تقرير المصير الذي خوله ميثاق الأمم المتحدة لكل الشعوب.

ففي ديسمبر سنة ١٩٤٨ حاصر السوفييت برلين الغربية، واضطرت السلطات إلى إرسال الغذاء إليهم بطريق الجو، وفي نفس الوقت انتخب سكان برلين الغربية برلمانًا مناهضًا للشيوعية، وبعد ذلك بعشر سنوات فوجئ السكان بضغط جديد من السوفييت، وفي نفس الوقت حل موعد الانتخاب، وكانت النتيجة أنْ فاز الشيوعيون باثنين في المائة من الأصوات فقط.

إنَّ ما قرره شعب برلين الغربية في الانتخابات لا يهم الشيوعيون في قليل أو كثير، فإن هدفهم الأول هو أنْ يجعلوا من برلين عاصمة «للجمهورية الألمانية الديمقراطية»، ولكي يصل الاتحاد السوفييتي إلى هدفه هذا طالب بانسحاب القوات الغربية من ألمانيا الغربية لإعلانها «مدينة حرة»، حرة لكي تكون مفتوحة لأي هجوم شيوعي!

إنَّ السوفييت يتخذون من هجومهم على برلين خطوة تمهيدية لتوسيع جديد لنفوذهم، فإن برلين الغربية باعتبارها «مدينة حرة» لا يدافع عنها الحلفاء، تمهد الطريق لموسكو؛ لكي تقدم حلًّا للمسألة الألمانية يحقق رغبات السوفييت وحدهم، وهذا واضح جدًّا من اقتراحاتهم الخاصة بمعاهدة الصلح الألمانية، وطبقًا لهذه المقترحات يجب إقصاء ألمانيا الاتحادية من منظمة دفاع شمال الأطلنطي، وإبعادها عن الجماعة الاقتصادية والسياسية لأوروبا الغربية.

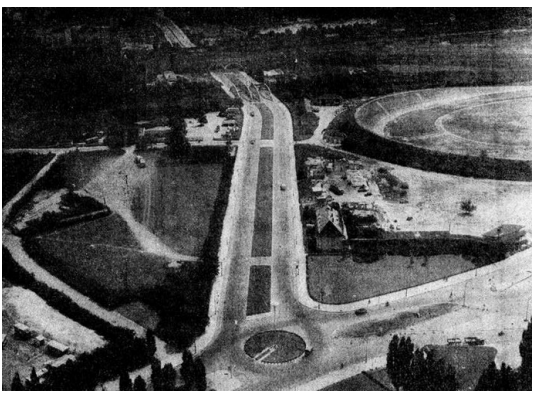

التقطت هذه الصورة الرائعة من برج راديو برلين المشهور، وهي تضم قطاعًا من الأحياء الجديدة في برلين الغربية.

وبذلك تقع ألمانيا الاتحادية — ومعها برلين الغربية في وضعها الجديد كمدينة حرة — تحت سيطرة جيرانها السوفييت الأقوياء، أما هدف الشيوعيين التالي فهو تحويل ألمانيا الغربية إلى منطقة متخلفة اقتصاديًّا تقع على حدود الكتلة الاقتصادية السوفييتية، فإذا نجحت خطتهم تحول ميزان القوة نحو مصلحتهم وذهبت مجهودات الدول الأوروبية لإيجاد منطقة اقتصادية عصرية قوية بلا جدوى.

إنَّ برلين اليوم لم تعد تمثل مجرد عاصمة قديمة من عواصم أوروبا، ولكن العاصمة الألمانية تمثل القلعة التي تقف أمام الشيوعيين.

وكما تمكن شعب برلين في أيام الحصار من الدفاع عن حريته، فإنه في الانتخابات البرلمانية الأخيرة قد سجل رفضه الحاسم لهذه الاقتراحات.

إنَّ شعب برلين يضع ثقته في عزم الأمم المتحدة على المحافظة على حق الإنسان في تقرير مصيره، وهو يؤمن — كما يؤمن الشعب الألماني بأسره — بالضمانات التي قدمتها الدول الحرة للمحافظة على حرية هذه المدينة.

ألمانيا لا تتجزأ!

استسلمت ألمانيا في ربيع عام ١٩٤٥ بلا قيد ولا شرط، فنتج من ذلك تقسيم ألمانيا إلى ثلاثة أجزاء، جزء شرقي احتله البولونيون بعد اقتطاع الاتحاد السوفييتي لقسم كبير من أراضيهم، وجزء أوسط احتله الاتحاد السوفييتي وقامت فيه حكومة «الجمهورية الديمقراطية الألمانية»، وجزء غربي كان قد تم انسحاب قوات الدول الغربية إليه، وأصبح يعرف اليوم بالجمهورية الفيدرالية، وهذا الجزء يتكون عدد سكانه من أكثر من ٥٠ مليون نسمة، وينتج وحده من الصلب ما يفوق إنتاج بريطانيا العظمى.

أما برلين عاصمة ألمانيا القديمة، فإنها تقع في منطقة النفوذ الشيوعي، وقد حدث في عام ١٩٤٤ أنْ تم الاتفاق بين الدول التي انتصرت على ألمانيا، على أنْ تدار برلين بواسطة الدول الأربع، وذلك إقرارًا باتفاق الجميع على وحدة ألمانيا، وكان قد تسنى للقوات السوفييتية خلال مرحلة الحرب الأخيرة أنْ تسبق باقي الدول الحليفة إلى دخول برلين.

ولما دخلت قوات الدول الغربية برلين بعد شهرين من ذلك التاريخ، تطبيقًا لنصوص الاتفاق السابق أصبحت برلين مقسمة إلى أربع قطاعات على رأس كل منها حاكم عسكري.[١]

وبالرغم من هذا الوضع، فقد اختار البرلينيون هيئة لإدارة مدينتهم، واستتب النظام والقانون، وأزيلت الأنقاض من جزء منها، وكوفحت الأمراض والأوبئة التي كانت متفشية فيها، وفجأة حاول الشيوعيون في عام ١٩٤٨ القضاء مرة واحدة على تلك الجهود، وذلك طمعًا في الوصول إلى إدماج برلين في منطقة ألمانيا الوسطى، فأغلقوا في يوم واحد جميع

---

[١] راجع: مشكلة برلين لها تاريخ من هذا الكتاب.

الطرق المؤدية من ألمانيا الغربية إلى برلين، سواء كانت طرق السكك الحديدية، أم السيارات، أم الأنهار.

واضطرت الدول الغربية بإزاء هذا التصرف إلى تموين برلين الغربية عن طريق الجو مدة تزيد على العام، أما صناعة برلين الغربية فلم تعد تنتج في ذلك الوقت سوى النذر اليسير من المواد، واضطر السكان إلى احتطاب أشجار الشوارع واتخاذ الوقود منها لاتقاء برد الشتاء.

وأيقن البرلينيون بأن الغاية من كل ذلك هي مجرد الضغط عليهم لإرغامهم على اعتناق مبادئ الشيوعية، ولكن فشلت هذه المناورات، وثبت أنَّ البرلينيين يفضلون تحمل ضروب الحرمان والتقشف، حتى البطالة المرة التي سببها حصار برلين عن الانقياد للشيوعية، ونتج من ذلك أنْ فصل الشيوعيون قطاعهم نهائيًّا عن برلين الغربية، وأغلقت الحدود المؤدية إلى غرب برلين إغلاقًا محكمًا، وقام سكان برلين الغربية في نفس العام بانتخاب برلمان جديد لهم بعد أنْ صح عزمهم على العيش في «جزيرتهم» أحرارًا، وهم في صميم منطقة النفوذ الشيوعي، وفي عام ١٩٤٩ رفع السوفييت حصارهم عن برلين، وعادت السيارات والقطارات تجتاز الطرق الموصلة بين ألمانيا الغربية وبرلين، وبدا في بادئ الأمر أنَّ الشيوعيين قد ارتاحوا للنتيجة التي حصلوا عليها باقتطاعهم قسمًا من برلين، وتمكنهم بعد ذلك من اعتباره عاصمة «للجمهورية الديمقراطية الألمانية».

ومرت فترة هدوء، إلى أنْ جاء عام ١٩٥٨.

وكأن مناسبة الذكرى العاشرة لحصار برلين في عام ١٩٤٨ قد أوحت للشيوعيين بضرورة شن هجوم جديد على برلين.

ولكن الهجوم في هذه المرة كان هجومًا مقنعًا، فقد أعلن أنَّ قوات الاتحاد السوفييتي سوف تنسحب من برلين، وإنَّ على قوات دول الاحتلال الثلاث الأخرى أنْ تقتدي بها فتنسحب هي الأخرى، وتسلم مقاليد الأمور في المدينة لحكومة ألمانيا الشرقية، وحدد الإنذار أو الهجوم المقنع الموعد الذي يجب أنْ تنسحب فيه قوات الغرب بيوم ٢٧ مايو من عام ١٩٥٩.

وبالطبع: رفض الحلفاء قبول هذا الإنذار، وأعلنوا أنهم لن ينسحبوا ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب.

وهكذا كادت برلين خلال فترة من عام ١٩٥٩ أنْ تكون السبب في اشتعال نار حرب عالمية ثالثة. وكان موعد هذه الحرب التي أوشكت أنْ تنشب بين الشرق والغرب قد تحدد

بمنتصف ليل يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٥٩، حتى لقد أخذ الألمان أنفسهم يشيرون إلى ذلك اليوم الموعود فيقولون «دير تاج»؛ أي اليوم الموعود!

ولكن مر يوم ٢٧ مايو بسلام، ولم يتخلله إلا حادث واحد اهتم به أهل برلين اهتمامًا شديدًا، وكان هذا الحادث هو افتتاح الموسم الموسيقي للفرق الإسبانية التي استدعيت للعزف في فندق هيلتون!

ووقع حادث آخر في تلك الفترة أثار سخرية سكان برلين، فقد آثر بضع مئات من رجال الأعمال الذين قدموا من ألمانيا الغربية لمسائل تتعلق بأعمالهم وتجارتهم ومصانعهم، آثروا أنْ يجلوا عن برلين قبل يوم ٢٧ مايو ١٩٥٩، فغادروا برلين بسرعة وعادوا إلى بلادهم قبل أنْ تنشب الحرب المزعومة، عادوا وتركوا أهل برلين يسخرون منهم!

وفي يوم ٢٧ مايو بالذات سار كل شيء في طريق المرسوم، ولم يحدث في المدينة شيء غير عادي بالمرة، فقد انتظمت الأعمال، ولم يبد على الوجوه أي أثر من أثار الخوف، وعمل مصنع «زيمنز» كالعادة، وظهرت الغادات الحسان في «الكورفورستندام» وهن يرتدين أحدث الأزياء، كما تناثر المصورون في هذا الشارع، وفتحت في شرفات المنازل الحديثة مظلات الشواطئ الملونة حتى يستظل بها عشاق الحمامات الشمسية.

أما الصحف فلم تُشِرْ منها صحيفة واحدة إلى الأزمة السياسية التي كانت تجتازها برلين، أو تجتازها ألمانيا أو يجتازها العالم كله بسبب برلين.

ولم تكن الحالة في برلين الشرقية أقل هدوءًا منها في برلين الغربية — سواء في الثكنات الحربية أو في الطرقات — بل لقد شهد بعض عمال برلين الشرقية، وهم في نوافذهم على حدود المنطقة الغربية، شهدوا حفل وضع الحجر الأساسي لبناء ضخم يتكون من ٣٦ طابقًا قررت إقامته إحدى دور النشر الكبيرة في برلين الغربية، فأخذوا يلوحون بأيديهم ترحيبًا وديًّا للمحتفلين والمدعوين.

لقد كان هذا الحادث البسيط في حد ذاته، وهو تلويح بعض المواطنين في شرق برلين لإخوانهم في الغرب، دليلًا كافيًا على شعور هؤلاء بأنهم جميعًا ينتسبون إلى وطن واحد، بل إلى بلد واحد وإنْ فرقت بينهم تلك الحواجز والحدود الوهمية.

ففي وطنهم الذي انقسم إلى شطرين يواظب اليوم ٧٠ مليونًا من أنشط شعوب الدنيا على القيام بدورهم التاريخي كأكبر أمة في العالم لها مشكلاتها، بعد ١٤ سنة من التسليم الذي أعقب الهزيمة ها هم يقفون على أقدامهم ويعيدون صناعتهم وتجارتهم.

إنَّ إرادة الألمان التقليدية ومقدرتهم على العمل تعبر الحدود بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، وقد حققت معجزة البعث في الغرب كما خلقت قوة صناعية في الشرق بالرغم من

صورة من الصور الكثيرة التي يراها زائر برلين في كل مكان، حتى في المنطقة الشرقية، وهي توضح مدى تمسك البرلينيين في الشرق أو في الغرب بوحدة عاصمتهم وتوحيد بلادهم، لقد رسم على هذه الشجرة صورة تمثل الحواجز التي تفصل بين شرق برلين وغربها على شكل أسلاك شائكة. كما ظهرت صورة يد ألماني من الغرب تمتد لمصافحة يد مواطنه الألماني في الشرق من خلال هذه الحواجز والأسلاك الشائكة، وقد كتب على الصورة: «رغم أنف الحواجز، ألمانيا لا تتجزأ.» ولننظر إلى الجانب الآخر من الصورة ولنأخذ فردناند جلوكنر مثلًا: إنه يعيش في الشرق حيث تعتمد الشيوعية على أنصارها ممن يعملون ٥٥ ساعة في الأسبوع، وهو رئيس لعمال أحد المصانع، ومع ذلك فإنه يقول: «إذا عملنا بكل ما في وسعنا فلن يستطيع شيء أنْ يوقف نهضتنا ووحدتنا.»

انخفاض مستوى المعيشة هناك، وألفرد كروب يعتبر رمزًا للبعث في الغرب، ففي ١٩٤٨ حكمت محكمة عسكرية أمريكية على كروب بالسجن لمدة ١٢ سنة، ومصادرة مستعمرته الصناعية باعتباره مجرم حرب، وقد عدل الحكم في سنة ١٩٥١ وأصبح كروب اليوم أكبر رجل للأعمال في ألمانيا، وهو يقول «إنَّ الوسيلة الوحيدة للحد من نشاط الألمان وإيقافهم عند حدهم هي إبادتهم جميعًا.»

وليست هذه هي أول مرة تتفكك فيها الدولة الألمانية إذ يذكر لنا التاريخ أنه عندما غزا نابليون أوروبا ووصل إلى ألمانيا، وجد فيها مئات الولايات والإمارات فقصرها على نحو ٤٠ ولاية، ومن العجيب أنَّ مؤتمر فينا الذي اجتمع ليعيد إلى أوروبا حالتها الطبيعية بعد

سقوط نابليون اعترف بالنظام الذي فرضه نابليون على ألمانيا، فألغى الولايات الصغيرة والإمارات، ولم يبق إلا على فرانكفورت وهمبورج وبرمن وليوبيك.

وتأسس بعد مؤتمر فينا مجلس «الدايت»، الذي ضم جميع الولايات الألمانية وعلى رأسها النمسا وبروسيا، وكانت الرئاسة للنمسا التي كانت تقف إذ ذاك حجر عثرة في سبيل الوحدة الألمانية؛ لأنها كانت تعرف مقدمًا أنه إذا تمت الوحدة الألمانية فإنها لا بد أنْ تخرج منها!

وقيض الله إذ ذاك لألمانيا السياسي «بسمرك»، وهو الذي اقترن اسمه في التاريخ بالوحدة الألمانية؛ لأنه هو الذي حققها معتمدًا على سياسة عملية أساسها إخراج النمسا من «ألمانيا الكبرى»، والاقتصار على ألمانيا الصغرى بزعامة بروسيا.

وانتصرت سياسة بسمرك فعزل النمسا أولًا، ثم انتصرت عليها جيوش بروسيا في حرب الأسابيع السبعة، وعقد معها بعد ذلك صلح براج الذي خرجت فيه النمسا من الاتحاد الألماني واعترفت بتكوين اتحاد ألمانيا الشمالي بزعامة بروسيا، وكان هذا الاتحاد أول نواة للوحدة الألمانية.

وجاء بعد ذلك دور فرنسا التي كانت تحارب دائمًا فكرة الوحدة الألمانية، فلما التقت جيوشها بجيوش بروسيا في حرب السبعين (يوليو ١٨٧٠) هزمت فرنسا في موقعة «سيدان»، التي انتهت بسقوط نابليون الثالث وحصار باريس، ثم استسلامها في يناير من عام ١٨٧١.

وفي ١٨ يناير من عام ١٨٧١ احتفل لأول مرة بتكوين الدولة الألمانية بعد أنْ تحققت الوحدة!

هذه لمحة سريعة من التاريخ!

ولكن ألمانيا اليوم — ولما يمر قرن واحد على تحقيق وحدتها الكبرى على يد بسمرك — تجد نفسها وقد انقسمت إلى شطرين، وعاصمتها برلين تتأرجح بين الشرق والغرب.

وهي تتطلع اليوم إلى الوحدة كما كانت تتطلع إليها منذ مائة عام، ولكنها تتطلع إلى وحدة تتم بالطرق السلمية لا بطريق الحرب، فقد اكتوت بنار الحرب مرتين في أقل من نصف قرن كما اكتوى بها العالم كله.

وما دام الشعب الألماني يريد الوحدة فستتحقق له وحدته بإذن الله؛ لأن رغبات الشعوب لا يمكن أنْ تتبدد في الهواء مهما اعترضها من صعاب وعقبات، ومهما تأخر موعد تحقيقها.

ويوم تتم الوحدة الألمانية تعود إلى برلين العاصمة المنقسمة مكانتها الأولى، ويبقى لبون «العاصمة القرية» كما يسمونها، مجد الذكرى!

هنـــداوي